أورهان كمال

جميلة

«رواية»

ترجمة / عبد القادر عبد اللي

أورهان كمال

جميلة

«رواية»

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

آفاق للنشر والتوزيع

طبع هذا الكتاب بدعم من صندوق مديرية المكتبات والنشر في وزارة الثقافة والسياحة التركية (تدا).

Bu kitap, T

الكاتب

اسمه الحقيقي محمد رشيد أويوتشو. ولد في أضنة عام 1914، وتوفي في صوفيا عام 1970. هو ابن عبد القادر كمالي الذي كان عضواً في الدورة الأولى لمجلس الأمة التركي الكبير. اضطر لترك المدرسة في الصف الثالث الإعدادي بسبب هجرة أسرته إلى سورية. حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات عام 1939 خلال خدمته العسكرية لأسباب سياسية. في هذه الفترة تعرف إلى ناظم حكمت، وأثرت علاقته بناظم حكمت بمفهومه الاجتماعي. توفي في صوفيا حيث ذهب للمعالجة.

تناول في أعماله الناس الصغار الذين يعانون من صعوبات الحياة، وجسّد مصاعب حياتهم. اتبع نهجاً تحذيرياً وتوجيهياً وواقعياً معتقداً بأن هذا يساعد الشعب على حياة فضلى. تناول في أعماله الأولى مشاكل عمال الزراعة والصناعة في منطقة تشيكوروفا (محافظة أضنة) في إطار يعتمد على حياته الشخصية. فيما بعد صور حياة أناس إسطنبول في الأحياء المتطرفة، وعالم العمال هناك.

كما كانت مشاهداته في السجن مادة هامة لأعماله. من هذه الأعمال: «المهجع 72»، وهي مسرحية مثلت عام 1967، وحازت في ذلك العام جائزة أفضل نص.

أعماله: مرتضى، الكنة، دنيا غريبة، ابن الأزقة، مفتش المفتشين، المحتال، صراع الخبز، المهجع 72، دكان الأغراض المستعملة، جميلة، ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت، فوق أراض خصبة، بنت من الأزقة، ثمة جريمة، مزرعة الست، المذنب، بيت الدنيا (الزواج)، طريق السوء، غيوم محملة بالمطر، قرطان أحمران، الممثلة، إضراب، المليونير المتسكع- دمعتان، طيور الغربة، أحد البيوت، الهارب، أراض مدماة، صفير صديق، طائر الدولة (الحظ الطيب)، كان ثمة فلز، سنوات البؤس، السكارى، بيت الأب، بنت الغسالة، الخبز أولاً، الدنيا المقلوبة، خطوط من اسطنبول، الكتابة بأقصى سرعة (يوميات وشعر)، الأعمال المسرحية الكاملة (في جزأين)، تقنية السيناريو، وسيناريوهات.

1

كانت ليلة صافية من ليالي أواخر أيلول من عام 1934.

تمتد حقول القطن الناصعة البياض على مد البصر تحت ضوء قمر قوي. وسيارات الدودج، والشفروليه، والفورد، وعربات الثيران والجواميس ذات العجلات غير المزيتة تملأ الليل بصخبها، وحيوانات الحراثة، وقوافل الجمال كلها محملة بالقطن غير المحلوج، والمسمى محبوباً على طرق القرى المغبّرة المؤدية إلى المدينة.

قفز الجمال خليل الأنكش الوجه عن حماره الذي يقود تسعة جمال، وأخرج من جيب سرواله الأسود علبة سجائر «سركدوريان»، وبعد أن أشعل واحدة، كسر عود الثقاب بإبهامه وسبابته، وأطلقه.

كان القمر المدور في الأعلى.

وخلف دغل السنديان الممتد على طول الطريق ابن آوى شبعٌ، يضرب بقوائمه على التربة الهشة بمتعة يظهرها من خلال شد ظهره نحو الخلف، وعوائه وهو ينظر نحو القمر مكشراً عن أسنانه الرفيعة الناصعة البياض.

عندما عوى ابن آوى مرة أخرى، بدأ كلب على مبعدة ينبح بصوت كأنه هدير. إثر هذا بدأت كلاب نحيفة وسمينة تنبح من اليمين واليسار. ركز ابن آوى انتباهه. وأنصت لليّل المؤرّق بخربشة الحشرات وهو قلق.

في تلك اللحظة بالضبط هبت نسمة محملة بالرطوبة جعلت قلب الجمال خليل الأنكش يرتعش. انتبه إثر ذلك أشد انتباه حين رأى أربعة ظلال لأشخاص خرجوا من خلف دغل سنديان كثيف مقابله. وبينما كان ثلاثة من

الظلال يغيبون في اتجاه، نزل الظل الرابع إلى الطريق، وأشعل سيجارة.

المدينة خط بعيد. تبدو خطاً من الضوء.

إذا كان الجمال خليل الأنكش لم يهتم لأن الحقول في هذا الموسم من السنة مأهولة حيث يجمع القطن المحبوب، فقد تذكر السيارة التي أوقفت قرب مدخل المدينة، وسُلبت، فامتدت يده إلى مديته الحديدية اللماعة في الجيب الأيمن لسرواله الأسود.

حين وصل إلى محاذاة الرجل على طرف الطريق، قال: «السلام عليكم!»

لم يكن واضحاً تماماً وجهُ الرجل الذي تنـزل قبعته إلى خلف رقبته. كان مرتدياً ثياب ميكانيكي، وطويل القامة، ونحيلاً. وعندما أجاب: «عليكم السلام يا خليل آغا!» توقف الجمال خليل الأنكش، وانحنى، وحاول روية وجه الرجل.

قال الآخر: «ما هذا، أما عرفتني؟» وكان مدبب الذقن، ومطاول الوجه.

قال الجمال خليل الأنكش الذي أدرك الصوت: واخ، هذا المعلم عزت! وأنا اعتقدت...»

ضحك الآخر. «ماذا اعتقدت؟ قاطع طريق؟»

«ممكن، ممكن...»

«إذا كان الأمر هكذا، فماذا ستفعل؟»

أخرج الجمال خليل الأنكش مطواه مطقطقاً به: «أنسيك ربك!»

تضاحكا. سأل الجمال خليل الأنكش: «ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟»

«لا شيء.. أصلحت مضخة المياه في المزرعة المقابلة، مكبسها كان معطلاً»

«لماذا؟ هل تركت المصنع؟»

«تركته. صار لي عشرين يوماً تقريباً..»

«يعني تركته؟»

«تركته...»

«ماذا تعمل الآن؟»

«ليس لي عمل معين بعد. أعمل هنا وهناك.»

«إنك تتدبر مصروف يومك ياه؟»

«إيه، يعني نتدبره.»

«أنت لا تبقى دون عمل يا عزيزي، أنت رجل مثل الذئب.»

«هذا غير معروف.»

«ما غير المعروف يا هذا. كنا في حديث قبل مدة، وفتحت سيرتك، قالوا صعب وجود واحد أفضل منك في تشيكوروفا هذه!»

«.....»

«بنت الأعمى التي لك هل تعمل؟»

«تعمل.»

«ما وضع مرضها؟»

«كما تعرف.»

«يا هذا، أنت رجل ذكي.. المرأة مريضة، هل العمل ممكن مع المرض؟»

«وهل تسمع مني؟ تقول إنها تتضايق من الجلوس في البيت. وتقول إذا كنت سأموت، فلأمت وراء الآلة.»

«أي امرأة هذه! هذا ما تقوله إذن... هيا لنذهب، ماذا تنتظر هنا؟»

«الآن تأتي شاحنة.»

أطلق الجمال خليل الأنكش شتيمة.

قال المعلم عزت: «لا تشتم الآلة. لا فائدة من هذا!»

بعد أن شتم الجمّال خليل الأنكش هذه المرة الشاحنة، ومخترع الشاحنة، والذي أدخل الشاحنة إلى البلد، ومن يعمل على الشاحنة، ومن يطلب العمل على الشاحنة مطولاً، قال: «أنا كنت ألعب بالنقود لعباً كل سنة في مثل هذا الوقت! واختلفت وجهة رزقنا من يوم دخول هذه الوساخات إلى البلد.»

قال المعلم عزت المبتسم بتفهم: «بع جمالك، وتدبر لنفسك شاحنة أيضاً.»

«أستغفر الله.. هذه ذكرى أبي وجدي وجده. وهي مخلوقات الأنبياء. أليس حراماً؟ دع هذا وذاك، وخبرني عن تلك الفتاة البوسنية. أما زلتم تقيمون في ذلك البيت الجماعي؟»

«نعم..»

«يعني أنتم جيران الباب بالباب؟»

«جيران الباب بالباب.»

«وقع لنا عندك شغل مرة في العمر، وأهملتنا يا معلم. مع أن علاقتك بوالدها جيدة!»

«أنت تعيد هذا مرات ومرات يا خليل، وكلما رأيتني يخطر ببالك.»

«من»

«أمر البنت...»

«والله إنها في حلمي ليلاً، وفي خيالي نهاراً... إنها ببالي في كل لحظة. أنا سأؤسس عائلة على سنة الله ورسوله...»

«البنت غير راضية!»

«بعد أن ترضي أبا البنت، فهل يبقى ذكر لرضاء البنت يا معلم؟»

«أنت غلطان في هذا.»

«لماذا؟»

«هذا ليس من الآباء الذين تعرفهم. فهو يحب ابنته أكثر من عينه. غير هذا، فإن عقل هذا الرجل مختلف... فهو لا يعطي ابنته لواحد محلي. يريد أن يأخذ ولديه، ويهرب من تشيكوروفا.»

«إذا هرب، فماذا سيحدث؟»

«عنده حقل يبلغ عدة دونمات، أعطته إياه الحكومة قديماً. سيعمل فيه.»

«وهل يمكن أن يكون هناك شغل في بضع دونمات؟ لا يمكن أن يعيش منها مهما صار.»

«إيه.. ولكنك طولت الأمر. غير هذا أنت تعرف، البنت تحب واحداً آخر.»

«الكاتب، أليس كذلك؟ وهل يمكن أن تُحب امرأة براتب ثلاثين ليرة شهرياً؟ لتأخذني، ولتأكل مقلة عيني! وسأملأ رقبتها بالمخمسات، وذراعيها بالأساور الذهبية المبرومة!»

«ليس في عين البنت أمور كهذه. هناك من يعمل لها عشرة أضعاف ما يمكن أن تعمله لها لو أرادت. ولكنها لا تريد.»

«... أبيع جمالي، وأصرف ثمنها كله عليها... لتكن فداءً لها.»

«.....»

«... أملأ ذراعيها بالأساور الذهبية المبرومة، وأشتري لها قرطاً ومخمساً.»

«.....»

«أنا سأجعلها عائلتي على سنة الله ورسوله، ولن تكون خليلة ياه.»

«هذا كلام فارغ يا خليل. لا تستهلك نفسك على شيء لن يحدث. أقول

لك البنت تحب الكاتب، وأنت حتى الآن...»

«وهل تُحب امرأة براتب شهري ثلاثين ليرة؟»

ولكنك بدأت تتمادى...»

قال الجمال خليل الأنكش الذي غضب فجأة: «بماذا بالغت؟ أقطع طريقها بالسيارة في أحد الأيام...»

«إيه؟..»

«وألقيها فيها، ويا الله...»

لم يجب المعلم عزت.

انطلق الجمال خليل الأنكش أمام جماله، وقفز على حماره. «حاااا...»

أشعل المعلم عزت سيجارة.

2

غاب القمر بعد أن أكمل دورته.

كان آذان الفجر يُرفع في جامع أولو.

بينما كانت أزقة المدينة الساكنة المتثاقلة القديمة والتي تذكر الغريب بالعصور الوسطى تكشف تحت الضوء، فُتح باب بهدوء، وأغلق. بعده باب آخر، وبعده باب آخر أيضاً... توجهت ظلال المسلمين المتوجهين للصلاة تتراكض على الجدران.

أحدهم يكح كأنه مخنوق، ويبصق على الأرض ملء فمه بلغماً، سُمع يقول فجأة: «الله جل جلاله!»

في هذه الأثناء كانت قافلة جِمال الجمّال خليل الأنكش تدخل الزقاق

المظلم خلف الجامع.

3

الطريق الذي يتفرع إلى ثلاثة فروع أمام باب المصنع الحديدي المدهون باللون الرصاصي مليء بعربات الثيران والجاموس وحيوانات الحراثة، والشاحنات الملونة من كل الألوان، وقوافل الجمال المحملة. الطرق المليئة بشكل لا تترك مجالاً لأحد يعبرها تتوحد في طريق عريض أمام المصنع، يؤدي إلى داخله، ثم يمر جاعلاً «مستودع اللوازم الاحتياطية» على يمينه، وورشة الحدادة إلى يساره، ويذهب من أمام المحلج الذي يقوم بفصل الحب عن القطن، ليمتد إلى القبانات الثلاثة المتجاورة عند مخازن المصنع الخلفية.

وفي القبانات الثلاثة ثلاثة كتاب يَزِنون القطن المحبوب الذي اشتراه المصنع، ويستلمونه.

في الجو رائحة حادة لروث حيوانات طازج. وثمة خوار ثيران وأصوات حيوانات أخرى، وصخب حمالين، وانهماك، وغبار، وعرق... نظر أحد الكتاب إلى ساعته، وقال: «تقترب من السادسة!»

أعلن بعد ذلك الخبر: «الساعة تقترب من السادسة يا ناس!»

صاحب المصنع يأتي في السادسة، ومهما تأخر، ففي السادسة والربع.

ارتفعت قرقعة القبانات، وتسارع ركض الحمالين.

4

لأنه ليس ثمة احتياط، ولا وردية ستتبدل، فإن حي العمال نائم. كأن حي العمال المؤلف من خشب متفسخ وصفيح صدئ وكوم من البلوك سيلاً. إنه سيل، وأي سيل، وينحدر من بعيد جداً متدحرجاً، ويرغي ويزبد، ويحدث دوامات مخيفة وهو يأتي، ويستند إلى جدران المصنع الأربعة، ذلك المصنع الذي يشكل نبضاً للحي منذ سنوات طويلة، الجدران الثقيلة الملبسة بالحجارة البيضاء سميكة وقوية ومرتفعة، وهذا السيل يصطدم بالجدران، ولا يتجاوزها.

اضطجعت البيوت إلى جنوبها، وجلست القرفصاء، وتربعت، وتكورت، وعلقت لحظة تدحرجها، إنها بيوت العمال.

تُفتح أبواب هذه البيوت المتفسخة أحياناً، وتخرج إما فتاة كغصن أو امرأة أو طفل بشبشب كبير جداً على قدميه بعينين تطفحان بالنعاس، ويدخل إلى بقالة جمعية عمال وموظفي المصنع المحدودة الواقعة عند باب المصنع.

كان البقال ذو الوجه المدور الأحمر والد كبير الفنيين في المصنع متكئاً إلى بسطته، وينظر من فوق إطار نظارته البيضوية العدستين ذات الإطار الفضي، ويثرثر مع الجمال خليل الأنكش.

قال في هذه الأثناء: «ها هي، جاءت امرأة صاحبك.»

التفت الجمال خليل الأنكش، ونظر. كانت امرأة شديدة الصفرة، وجلد على عظم. وكانت تمسك بيدها زجاجة زيت زيتون سوداء.

سأل الجمال خليل الأنكش: «هل أنت زوجة المعلم عزت يا أختي؟»

التفتت المرأة بعينيها المتعبتين نحو الجمال خليل الأنكش، وهزت

رأسها.

قال: «أعتقد أنك مريضة؟ الله يعافيكِ!»

«وهل أعرف ما إذا كنت مريضة أم لا؟»

«ستشفين يا أختي، ستشفين إن شاء الله. لا يُقطع الأمل من الله!»

«أرجوك. ماذا سيحدث إذا شفيت؟ هل سأغدو كلبة وأهز بذيلي؟»

ووضعت زجاجتها على بسطة البقال.

«ضع في هذه بليرتين ونصف زيت زيتون لنرى!»

قال الجمال خليل الأنكش: «رأيت زوجك في الطريق. أَصْلَحَ مضخة. تكسبون نقوداً وفيرة.»

قالت المرأة: «لا أعرف ما نكسبه.» وهمّت بالذهاب.

«تمضي، تمضي.. إنه معلم قد الدنيا يا ناس.»

«إن شاء الله...»

تناولت الزجاجة التي قدمها لها الأجير، وقالت: «سجل على الحائط، ولتبق للربيع!» وخرجت ذاهبة.

بعد أن سجل البقال الدين على الدفتر، قال: «ليس هناك كلام على معلِّميّته، ولكنه لا يثبت في مكان. والحقيقة أمثاله قليلون في تشيكوروفا هذه.. ثلاثة أيام هنا.. وخمسة هناك...»

«يجب أن يثبت الإنسان في مكان! سألته عن البنت البوسنية، قلت له بما أنكم تسكنون في الدار نفسها، وجيران الباب بالباب، تحدث مع والدها، وأنهِ هذا الأمر.»

«ماذا قال؟»

«يقول: الكاتب يحبها.. قلت له: وهل تُحب امرأة براتب ثلاثين ليرة؟ أنا

أملأ ذراعيها بالأساور الذهبية المبرومة. وأجعلها تأكل مقلة عيني. قلت له غير هذا، أستأجر لك داراً كبيرة في المدينة. وقلت: أبيع جمالي، وأصرفها عليك... وأبيع كل شيء يا عمي! يقال إن والد البنت صعب. هل هذا صحيح؟»

«أي بنت؟»

«البنت البوسنية...»

«أبو جميلة؟»

«هه..»

«ليكن صعباً يا عزيزي. النقود تفرق بين الأم وابنتها... ولكن البنت ليست من النوع الذي تعرفه. قوية. الذين يلاحقونها كثيرون يا أخي، ولكنها لا تلتفت إليهم حتى.»

«كيف الكاتب؟»

«الكاتب أيضاً ولد جيد، ومحترم. يشرب ولا يسكر. يدخل إلى مستودعي هذا، ويجلس أمام النافذة، ويمشط شعره..»

«وهل تحب امرأة براتب ثلاثين ليرة شهرياً.»

«ولماذا لا تحب؟ ألا يقولون بعد أن يلتقي القلبان لا يبقى على الآخرين إلا الفرجة يا ابني؟»

«لا يدخل قائلو هذا الكلام بالعقل... لو أنها تقول نعم يعني... سأملأ ذراعيها بالأساور الذهبية المبرومة!»

«ألا يوجد أحد لك في الداخل؟»

«أين؟»

«في قسم الغزل. ضع في يدها بضعة قروش...»

«يوجد. هناك ابنة خال صاحبك العين الزجاجية. البنت السمراء...»

«امتدحتها بشكل جيد يا هذا. وما هي مهارة البنت السمراء؟»

«هي فتحت المسألة بشكل غير مباشر. حاولت أن تفهم وضعها مرة أو اثنتين. ولكن لولا وجود ذلك الكاتب...»

«هذا يعني أن البنت أيضاً تحبه؟»

«وماذا يعني أن تحبه يا هذا؟ وهل تحب امرأة بثلاثين ليرة شهرياً يا عمي محمد؟ إذا تزوجوا غداً، وقالت البنت أريد ملحاً، سيحترق قلبها! سيما إذا صار عندهما ولد أو ولدان، دعك من هذا... مع أنها لو أحبتني..»

«هل قالت لها البنت السمراء كل ما قلته؟»

«من ناحية القول فقد قالت...»

«إيه؟»

«عقل مجنون. قالت لها لا تحكي معي بهذه الأمور، سأشتكي عليك للإدارة.»

«إذا كان الأمر هكذا، فلم يبق لك مخرج. اغسل يدك من الموضوع.»

«وهل تُحب امرأة بثلاثين ليرة شهرياً؟ كيفما كان فهو كاتب لا راح ولا جاء.. مع أنها لو أحبتني...»

نادى البقال أجيره: «أحمد. ارفع هذا الباب السحاب.»

وما إن رفع الأجير الباب السحاب الساقط إلى النصف، ظهر الآغا من الزاوية المجاورة لحلاق الجمعية. كان يمشي إلى جنب وخداه غائران تحت قبعة قش عريضة الحواف على رأسه، وشفته السفلية متدلية، وبطنه الضخم يبدأ من تحت صدره مباشرة، ورجلاه رفيعتان، ومشيته تذكر بمشية البط.

الجميع يعرف أنه جاء إلى تشيكوروفا شبه حاف، وبطربوش مزيّت

يغوص حتى أذنيه عاملاً مياوماً. وكان ينتصب طوال اليوم أمام بناء محمود باشا التجاري بعينيه المصابتين بالرمد منتظراً جلود الأرانب غير المدبوغة التي يجلبها قرويو القرى الجبلية، ويدبغ تلك الجلود، ويبيعها، ويعقد عقدة وراء عقدة على بضعة القروش التي يكسبها من هذا العمل. وكان يمضي يومه بالخبز مع الجبن أو المخلل أو الزيتون الأسود أو الحمص المغلي مع الكمون.

رأى البواب البوسني الآغا قادماً، فشد أطراف سترته التي تشبه سترات حراس الأحياء، ورتب نفسه، وطرد الأولاد الحفاة الذين يتدافعون على جمع زبل الحيوانات في أوعية يحملونها، ثم وقف باستعداد، وتحول إلى صنم أمام براكة الحراسة الواقعة خلف الباب مباشرة.

لم يكن الآغا منتبهاً لكل هذا. استعرض بعينيه وقد زمَّ ما بين حاجبيه العربات والشاحنات وقوافل الجمال المحملة بالقطن المحبوب، ثم سأل: «لماذا تجمعت هذه؟ أغلقت الطرق تماماً! ألا يقف الكتاب على القبانات؟»

سأل هذا رغم معرفته بأن الكتاب الثلاثة الذين يقفون على القبانات يعملون طوال الليل وكأنهم يتسابقون.

دخل إلى المصنع دون أن ينتظر الجواب الذي سيجيبه البواب، وولج غرفته. خلع سترته وقبعته، وأعطاهما لآذنه، وارتدى قميص العمل الأبيض الطويل الذي يلبسه كلما دخل ليراقب المصنع من الداخل، ووضع على رأسه الأجرد الصلب «البيريه» الكحلية، ودخل إلى المصنع للتفتيش كما يفعل دائماً.

5

كان يصعد إلى المحلج، أي القسم الذي تفصل فيه البذور عن القطن عبر سلّم خشبي متآكل لكثرة الصعود والنـزول عليه، وهو يرتجف مثل الماء.

يزن الكاتب بالات القطن المفصولة البذور. والجمال خليل الأنكش يجلس في الغرفة واضعاً ساقاً على ساق، ويدخن سيجارة.

طار صواب الآغا. وكان الكاتب أصلاً قد ترك عمله، وهرع نحو الآغا.

وخلال صعودهما الدرج معاً، توقف الآغا فجأة، وقال للكاتب الذي يسير خلفه مباشرة: «أقلع لك عينيك الاثنتين، وأطردك من عملك فوراً يا غبي! وهل ستحرق معملي؟ لماذا لا تقول له التدخين ممنوع داخل المعمل؟»

اهتز الكاتب السالونيكي البالغ ستين عاماً من العمر، وقال: «قلت له. والله بالله قلت له!»

«لماذا لم يطفئها إذا كنت قد قلت له؟»

«.....»

«... خفت أن يكسر خاطر الآغا؟ ليكسر.. هذا لا يهمني.. رح، وقل له أطفئ سيجارتك!»

عاد الكاتب إلى غرفته غاضباً، وقال بحدة: «أطفئ السيجارة يا أخي!»

قال الجمال خليل الأنكش: «روحت لنا متعتها! من وقت أشعلتها، وأنت تقول أطفئها، أطفئها.. لم يبق منها غير سحبتين أصلاً..»

«أنا لا أفهم سحبة أو سحبتين. أطفئها... لم يترك الآغا ما لم يقله لي بسببك. ما الذي يجعلني أسمع كلاماً من أجل الغرباء؟»

«الآغا لا يقول لي شيئاً، أنا يميزني عن الآخرين!»

«هذا المكان مصنع. وليس لأي أحد تمييز.. أطفئ سيجارتك! هيا.. انظر القطن يملأ الأمكنة كلها. شرارة تقضي على كل شيء. أطفئها، أطفئها يا هذا!»

نظر الجمال الأنكش إلى الكاتب بحنق، ورمى عقب سيجارته، وداسها برأس حذائه. واعتبر هذا الأمر هزيمة. أخرج سبحته ذات الحبات الصفراء الكهرمانية الكبيرة، وبدأ يطقطق بها. كان غضبه يتزايد باستمرار. نظر بطرف عينه إلى الكاتب، وقال كأنه يكلم نفسه: «الحجر بمكانها تزن قنطاراً..»

كان الكاتب يسجل أرقام البالات التي يضعها الحمالون على القبان، وأوزانها على دفتر. نظر من فوق نظارته إلى الجمال خليل الأنكش، وحوقل.

صاح الجمال خليل الأنكش: «لماذا تحوقل ولا؟»

قال الكاتب: «أنا لا يقال لي ولا، أنا سيد!»

«باين على وجهك...»

«باين طبعاً..»

«اخرس ولا! الآن تجعلني أنزل بأم السيد والأفندي، وزوجاتهم ها!»

خلع الكاتب نظارته، ووضعها بعناية على الطاولة، ونهض، ووقف أمام الجمال: «انقلع من هنا، هيا!»

نهض الجمال خليل الأنكش، ووضع سبحته في جيب سرواله.

«يعني لا يمكن أن يكون هناك أقل من انقلع؟» ودفع الكاتب من صدره.

تراجع الكاتب عدة خطوات، وقال: «أنت الذي تفرض الأدنى من انقلع ولاه. وإذا كان عندك شيء، فأرنا إياه!» وأراد أن يدفع الجمال خليل الأنكش.

دفع الجمال يد الكاتب بحدة، وقال: «اقعد مثل الناس، وانظر، سأغضب

منك ها!»

بدأا بالتدافع. هذا دفع ذاك، وذاك دفع هذا. وبدفعة واحدة طير الجمال خليل الأنكش الكاتب نحو طاولته، وفي تلك اللحظة تدخل الحمالون، وفصلوا بينهما، وأخرجوا الجمال خليل الأنكش إلى الخارج.

كان الكاتب الذي ترتجف يداه ورجلاه يفور من الغضب. وصفع باب غرفته خلفه، وهو يصرخ بأعلى صوته، وأدخل مزلاجه.

أما الجمال خليل الأنكش، فقد كان يقول وهو بين أيدي الحمالين: «بعد قليل.. أريد هذا كله بعد قليل. إذا سكتُّ لك عن هذا، فتكون هذه الشوارب لأمي...»

شرب الكاتب كأس ماء، وجلس خلف طاولته. وتناول قلم الكوبيا بيده المرتجفة، ووضع نظارته على عينيه.

كان الجمال خليل الأنكش يشتم حتى تلك اللحظة.

وزن الكاتب بيدين معتادتين البالة الموضوعة على القبان، ونادى بوزنها رغم عدم ضرورة هذا الأمر، قائلاً: «مائة وعشرة كيلو، ارفعها!»

اعتقد الجمال خليل الأنكش بأن الكاتب لم يتنازل للرد عليه، فشتمه مرة أخرى.

كرر الكاتب الأمر، ولكن بقصد هذه المرة، فنادى: «مائة وثمانية، ارفع!»

وصل الجمال خليل الأنكش إلى حافة الجنون، فشتم قائلاً: «ولاه، يجعل جيش الإسكندر كله ينزل في عيساك وموساك، وذريتك لبعد سبعة أجيال..» وخلص نفسه من بين أيدي الحمالين، وركل باب غرفة الكاتب ركلة فظيعة.

قال الكاتب: «هيش، يا دب ابن دب!»

انطلق الجمال خليل الأنكش نحو غرفة صاحب المعمل بسرعة.

بعد قليل شرح الكاتب الوضع للآغا الذي كان ينـزل درج المحلج، وقال: «ذهب ليشكوني لكم!»

أجاب الآغا: «لا ترد عليه. إذا احترق معملي، فسترقص قلوب السافلين على الطبلة.»

وغير طريقه نحو صالة المغازل.

6

كانت الصالة التي تصنع فيها خيوط قطنية ناعمة، وعالية الجودة، ولينة في كل نقطة منها، وبكل الألوان من النمرة أربعة إلى النمرة أربعة وعشرين مجاورة لدورة مياه الرجال، وتفتح أبوابها المدهونة بالأزرق إلى الداخل والخارج، وسقفها مرتفع على أعمدة حديدية متينة، ومنورة ونظيفة ومتلامعة.

بعد الدخول من الباب مباشرة، هناك على اليمين آلات «السحب» ماركة رايتر... تقوم هذه الآلات بالتقاط طرف القطن القادم من آلة فتل القطن، وسحبه بالنمرة المطلوبة، ثم لفه على بكرات. ويعمل على كل آلة سحب عاملان، يسمى أحدهما «مقدم» والآخر «مؤخر». ثمة عمال من البنات والأولاد والرجال والنساء والشباب والشياب حفاة أو يرتدون بأرجلهم شباشب على أرضية الصالة الرطبة... وخاصة الأطفال... كان هؤلاء ما بين التاسعة والعاشرة من أعمارهم، عيونهم تطفح بالنعاس، وشاحبين. ولكي يتوافقون مع قانون العمل، فقد دخلوا بموجب هويات أمهاتهم أو عماتهم أو خالاتهم، أو أخوالهم، أو هوية شخص غريب تماماً حصلوا عليها مقابل حفنة من النقود.

وتتفرق الخيوط فوق الأسطوانة الرفيعة لآلة السحب المغطاة بقماش

أخضر كالماء، ثم تتوحد، وتمر من حلقات تبرق بريقاً، وتلف على بكرات بسرعة مدوخة، وصوت أزيز ناعم.

مهمة العمال الكبار والصغار الذين يعملون كل يوم اثنتي عشرة ساعة وقوفاً على أقدامهم هي «ربط» تلك الخيوط التي يمكن أن تنقطع كل فترة. وكان العمال ماهرين جداً بعملية الربط هذه...

وقف الآغا عند آلة السحب الأولى على اليمين. كان يشعر بإعجاب لا يصدق بالآلات. ركز عينيه على آلات السحب الخضراء.

ولأن خبر وصول الآغا إلى صالة الغزل ينتشر بسرعة دائماً، فكان يطير إلى المعلمين أو مساعدي المعلمين الذين يتفرقون إلى الزوايا لشرب الشاي أو القهوة أو المياه الغازية وهم يثرثرون، أو يعلقون على البنات بالكلام.

وهذا ما حدث من جديد. فقد دخل المعلم الملاحق النساء الكبير الكرش صالة الغزل من الباب الخلفي بهدوء، وتظاهر بأنه يصلح إحدى الآلات الخلفية.

أما الآغا فقد كان يتكلم مع عمال آلات السحب. قال لعامل سحب في الثانية عشرة من عمره، ارتدى بقدميه الرفيعين بوط أبيه الممزق والمرقع: «إيه، هل أنت مسرور من نظام الإيطالي؟»

هز الصبي الكبير الأذنين المفلطح الوجه رأسه إلى الجانبين، وقال: «دع هذا يا آغا، من أين جلبت على رأسنا هذا الكافر؟»

«لماذا ولا؟»

«وهل في هذا الأمر لماذا يا آغا؟ وهل تغدو الخيوط هكذا؟ تنقطع، وتنقطع بلا توقف!»

«إيه.. الرجل مهندس، وكافر... يفهم أحسن منك ومني طبعاً.» ركض

الولد لربط الخيوط المقطوعة، شتم قائلاً: «يجعل هندسته وكفره...»

قال المعلم البدين الذي ظهر بجانب الآغا: «العمال كلهم يشتكون! الناس يبكون دماً. خاصة قسم النسيج... إذا استمر الوضع على هذا النحو، فإنهم سيجعلون الرجل يعاف ربه...»

ابتسم الآغا، وقال: «ما علاقتي؟ لستُ وحدي صاحب المعمل... ولست من جلب الرجل إلى المعمل...»

«والله أنا لا أعرف. إذا استمر الوضع هكذا، فسيتمرد العمال قريباً!»

«على السيد نعمان شرف أن يفكر. هو الذي ربط الرجل بعقد مدته خمس سنوات. الرجل يعاندني في كل شيء حتى عندما أقول يا الله...»

التف حول الآغا قسم من العمال والمعلمين.

قال أحد مساعدي المعلمين الذي تداخلت طيات ما تحت ذقنه: «الناس يهربون إلى مصنع سومر بنك!»

هز الآغا كتفه: «ما علاقتي، الأمر لا يؤثر علي..»

«الشواغر في سومر بنك مليئة الله يبارك فيها. وإلا لن نجد من نشغّله.»

لفق الآغا: «اسألوا هذا السؤال السيد نعمان والإيطالي. لا تأتوا إلي أبداً!»

مشى. كان مسروراً إلى أبعد الحدود. قال معلم صالة النسيج الذي يسير بجانبه تماماً: «إذا كان عندهم عقل، فليقطعوا طريق الكافر، وفي مكان قفر...»

قال المعلم: «سيحدث، وهذا أيضاً سيحدث...»

«إن شاء الله.»

لا تشغل بالك أنت أبداً. سيجد بليته على يد النساجين. الكل يشتم...»

وبينما كان الآغا يعبر آلات السحب، أشار بذقنه نحو الغرفة التي تقع في

نهاية صالة الغزل، وهي غرفة الإيطالي: «ألم يأتِ بعد؟»

لا يأتي قبل التاسعة. الرجل مهندس أوربي، وهل هذا أمر بسيط؟ إنه ليس مثلنا يا رجل. كأن المصنع لا يعمل عندما لا يكون موجوداً. كأن له ضرورة كبرى.»

كانت آلات حل الخيوط منفصلة عن آلات السحب بممر إسمنتي ضيق. تأتي بكرات الخيوط من آلات السحب بأوعية خشبية كبيرة جداً، وتفك هناك، وتحول إلى شلل، ثم تدفع إلى السوق.

كانت رؤوس العاملات المغطاة بأغطية بيضاء مطرقة. وكن يرتدين صدريات سوداء، ومنهمكات في العمل. ويربطن الخيط الذي ينقطع ما بين لحظة وأخرى.

والفتيات اللواتي يعملن على فك الخيوط يشتكين من تقطيع الخيوط الذي جاوز المعتاد مثلهن مثل العاملات على اللفافات.

كنَّ يقلن: «حدث شيء للخيوط، نحن منذ سنوات في المصنع، ولم يحدث شيء كهذا من قبل.»

أجاب الآغا فوراً: «وهل ستعرفن أفضل من المهندس الأوربي؟ عقولكن ليست أذكى من عقله ياه؟»

كانت الفتيات يقلن: «واحد نجس، من أين نزل على رأسنا؟»

«لستُ من أنزله.. أنا لا ذنب لي.. لو كنت صاحب المعمل، لأمسكت به من ذيله، ورميته!..»

تدخل مرة أخرى المعلم الكبير الكرش، ومساعد المعلم: «سيجد بليته على يد العمال الذين يلعب بلقمة عيشهم. أليس حراماً من أجل هذه الأمهات المسكينات؟ وهل العمل سهل اثنتي عشرة ساعة وقوفاً؟»

ابتسم الآغا بمكر، وقال: «ليفتحوا أعينهم! وهل يعطى الولد الذي لا

يبكي رضعة؟ هل ذهبتم إلى السيد المحترم نعمان؟»

«ذهب النساجون، واشتكوا... استمع إليهم قليلاً... ثم غضب. وقال لهم أنا لست مستعداً لسماع شكواكم من رجل علم أوربي، هيا، انقلعوا من هنا...»

قال الآغا الذي كان يقف بجانب جميلة: «السيد نعمان العظيم، عنده رِجل في أوربا، وأخرى في أمريكا.. ومن سنكون نحن بالنسبة له؟»

نسيت صالة الغزل الآغا الواقف بجانب جميلة البوشناقية، والإيطالي فوراً. وبدأ الهمس نحو اليمين ونحو اليسار.»

ثمة ثلاث آلات في الأسفل تعمل على إحداها البنت السمراء الخادمة الزنجية. همست مريم الأرناؤوطية، لخديجة الكريتية وكلتاهما تعملان على الآلة نفسها قائلة: «انظري إلى الخوري كيف ينظر إلى البنت!»

قالت خديجة الكريتية الشامخ أنفها إلى الأعلى قليلاً: «آه من الخوري، وأي خوري.»

قالت مريم الأرناؤوطية الضيقة الكتفين، والنحيلة جداً، والبشعة: «ماذا عن الذي معه؟ انظري إلى ذينك الحاجبين كأنه أب يعبس بوجه ابنه، أو...»

وأكملت خديجة، قائلة: زوجها!»

«والله.. كأن الأمر ليس جميلاً...»

«لا شيء يا روحي... آغا قد الدنيا..وهل أنت إنسانة يمكن أن تعبسي بوجه رجل مثل هذا؟ ومن تكونين أنت؟»

قالت البنت السمراء: «ومن عنده كرامة وتكبر مثلها؟ أنفها مرفوع بعلو جبل قاف بسبب هذا الجمّال، وكلمتها عنه. وقلت لها إن الرجل يتحرق عليكِ، وقلت إنه يقول إنه سيملأ ذراعيك بالأساور المبرومة، ومستعد لأن يطعمك مقل عينيه، ولكنها رفضت!»

«غدا، سيضع الكاتب في فمها...»

«والله... يقول الجمال، وهل تُحب امرأة بثلاثين ليرة شهرياً؟»

«وهل قلت لها كل هذا؟»

«لجميلة؟ قلت لها.»

«ماذا تقول؟»

«لا شيء. تقول سأشتكي عليك للإدارة. لتشتكِ، وهل أخاف؟ أنا لا أخاف من تكبرها، إذا كانت بئراً، فأنا غطاؤه. ولكن النقطة التي أقصدها مختلفة...»

قالت مريم التي تنظر إلى جميلة بحقد: «رافضة النعمة. جاءها النصيب لعند قدمها... ألا يأخذني جمالك هذا يا بنت؟»

«ماذا يفعل بك يا نجسة؟...»

رأى المعلم الكبير البطن الكاتب، فقطب وجهه فوراً. وهمس بأذن الآغا: «هذا رجل صاحبك السيد نعمان. إنه هنا كل ساعة. مع أنه لا علاقة له أبداً بالمغزل... يحمل ورقة أو ورقتين، ويتجول. قصده الاهتمام بالبنات.»

ارتبك الكاتب حين رأى الآغا أمامه. أراد أن يعود، ولكنه تخلى عن الفكرة حين أدرك بأنه سيلفت الانتباه تماماً في هذه الحال.

وبينما كان يمر بجانب الآغا، سأله: «إلى أين ذاهب؟»

توقف الكاتب. احمرت وجنتاه المحلوقتان حديثاً. كان شعره يلمع بزيت الشعر: «أنا جئت لأطلع على تقارير السنيور أورلاندو!»

قال معلم صالة الغزل: «البارحة فقط قلت له إن الإيطالي لا يأتي قبل الساعة التاسعة!..»

ارتبك الكاتب.

قال الآغا بحدة: «البارحة قال لك.»

نظر الكاتب بطرف عينه إلى جميلة. تلاقت عيونهما. لم يكن لديه جواباً يمكن أن يعطيه إياه، ويخدعه به. ورغم هذا كان لابد له من قول شيء ما. راحت عينه نحو البنت مرة أخرى.

في تلك الأثناء قال الآغا: «هيا لنرى، انقلع! هذا ليس مكان لقاءات!»

خرج الكاتب الذي اعتقد بأنه قد محق ذاهباً وتتعثر قدمه بالأخرى.

قال المعلم: «وهل هذا احتياط (آ) قائم على رأس عمله؟ إنه هنا ليلاً نهاراً!» وأكمل كلامه بعد أن نظر إلى جميلة بعين حمراء، قائلاً: «ما الحكمة يا ترى؟»

لم يهتم الآغا. اندس مرة أخرى قرب جميلة. أما جميلة فقد كانت ترتجف من توترها. وتحني رأسها بقدر ما تستطيع لإخفاء عينيها الدامعتين.

قال الآغا: «إيه، ألا يعجبك نظام الإيطالي؟»

لم تجب جميلة. وأطرقت برأسها قليلاً أيضاً. تجولت يداها اللتان ترتجفان بين خيوط الآلة.

قال لها الآغا: «أنا أتكلم معك!»

ومن بين رمشين مبللين نظرت كالسهم إلى قدمها، وردت قائلة: «كيف سأعرف أنا؟»

لم يكن ينتظر الآغا رداً كهذا، فنظر إلى معلم صالة الغزل. كان المعلم يبتسم، وكانت ابتسامته باردة وماكرة...

«ما هذا الموقف والجواب يا بنت؟ أليس عندك أي تربية؟»

قالت جميلة: «لا يوجد.»

بعد أن أمعن النظر بالبنت طويلاً، هز رأسه، وسار غاضباً. وقد ذهب معلم المغزل من خلفه. وخرجا معاً.

سأله الآغا: «من هذه البنت، ولمن؟ لماذا حرنت هكذا؟»

قال المعلم بابتسامته الماكرة تلك نفسها: «أما طردت حبيبها يا رجل؟!»

قال مندهشاً: «يااا.. طالما أنك تعرف الأمر، فلماذا جعلتني أطرد الولد.»

«دع عنك هذا.. هذا ليس مكان مواعيد الكتاب والكتبة. حسن ما فعلت.»

«يخشى أن...»

«لا والله يا آغا... أنا عندي بنات بطولها..»

«لا تعرفني أي قذارة أنت.»

«لا والله يا آغا... صدقني ليس هناك شيء..»

«لا تعرفني أي قذارة أنت يا شكري...»

«ولله ليس هذا يا آغا، وبالله ليس هذا.»

«هيا ليكن هكذا.. من هذه، ولمن؟»

«هذه أصلاً مهاجرة، بوسنية... أبوها رجل طويل القامة. ولكنه كان في بلده من النخبة وأصحاب الملكيات الكبيرة. يحكي عنه الذين يعرفونه، وكان رئيس عصابة، ويضع طابوراً من الكفار أمامه، ويسوقهم. طبعاً كان رجلاً غنياً، ولديه كثير من الأملاك. وكان يقاتل الصرب في سبيل الدين. ولكنه يقتلع الأسنان الصعبة.» وفتح فمه، وأشار إلى مكان اقتلاع ضرس كالمغارة. «انظر، إنه اقتلع هذا الضرس. يده خفيفة جداً.. ثم إنه يجبر الكسور ويداوي الجروح... ويطلع بيده كل عمل. كان لهذه البنت أم يا آغا، إيه... إذا رأيتها ستقول إن الله تفرغ من أعماله كلها ليخلقها. كانت جميلة جداً. كان عندها

شعر، يصل إلى كعبيها، وكانت بيضاء كالثلج. وحاجباها، وعيناها...»

«حلي الحديث عنها، وحليه يا هذا.»

«لماذا؟ أليست البنت في الميدان؟ وعند هذه البنت أخ أيضاً. يعمل في قسم النسيج.»

«في قسمنا للنسيج.»

طالما أن مهنة أبيها صعبة إلى هذا الحد.. لماذا يترك ولديه يعملان في المعمل؟»

«والله لا أعرف، ولكنه رجل رأى، وعاش كثيراً، إنه ابن إقطاعي كبير.. يقلع الأسنان دون نقود، يداوي الألم دون نقود، ويجبر الكسور دون نقود، يحلق الذقن، ولا يقبض قرشاً. مع أنه لو أخذ، لكسب أكثر من أجرة ولديه معاً. ولكن تعال أقنعه بهذا. رجل إقطاعي، من يعلم..»

ضحك الآغا حين تذكر شريكه، ثم قال: «يعني مثل ذكر البصل، أليس كذلك؟ ولكن أحسنت الفتاة. حرنت بوجه معلمها الكبير.»

اتجه نحو صالة النسيج.

7

لحظة وصول الآغا إلى صالة النسيج، كان المهندس الإيطالي أرولاندو قد ظهر من باب المصنع الخاص بالموظفين. على رأسه قبعة كولينيالية بيضاء، ويدخن غليوناً، ومعه كلبه الذئبي الضخم، ويحمل عكازه ذا العقد، ويرتدي بنطالاً قصيراً يظهر شعر ساقيه الأشقر...

عبس وجه الآغا. شتم، وبصق على الأرض، ودخل.

كانت صالة النسيج التي يدور فيها ثلاثمائة نول آلي وهي تصدر صوتاً يصم الآذان تعج بالغبار. وفي أشعة شمس الصباح التي تسقط من نوافذ في السقف على شكل أعمدة يتطاير غبار القطن، وتفوح صالة النسيج برائحة النشاء.

كان معلم النسيج الذي قابل الآغا عند الباب زنجياً محتالاً، نحيلاً جداً، وطويلاً مثل العتلة، وعيناه منـزلقتان نحو جذر أنفه. ويحكي له ما يريده وما لا يريده وهو يسير خلفه من اليسار: «... العمال يغلون. من يستطيع الهرب إلى مصنع سومر بنك، يهرب. الحمد لله أن شواغر المكان هناك ملئت.. ماذا سيفعل العامل؟.. إنه لا يستطيع نسج القماش لكثرة ما يربط الخيوط المتقطعة! ليس الأمر مهماً، ولكن يمكن أن يحدث ما هو قبيح...»

«مثل ماذا؟»

«العمال لا يريدون الإيطالي! وحياة والديك أنا لا أديرهم إلا بصعوبة.»

قال الآغا: «ما علاقتك أنت؟ لماذا تدير أمورهم؟ سن كلب، وجلد خنـزير. دع السكران حتى ينهار!»

«يقتلون الرجل يا آغا.»

«وهل هو ابن أبيك؟»

تمايل معلم النسيج فرحاً، وقال: «الضمير. لولا الضمير في الإنسان...»

ألقى الآغا نظرة، ومشى.

تجول الآغا بين الآلات واحدة واحدة كما فعل في صالة النسيج، وكان يقول للعمال الذين لم يستطيعوا ضبط أنفسهم فأطلقوا الشتائم على المهندس الإيطالي: «وهل تعرفون أنتم أفضل من السيد نعمان؟ الرجل لم يدع مكاناً في أوربا لم يزره، ولا في أمريكا...»

قال العمال لأنفسهم: «ما علاقتنا نحن بزيارته لأمريكا وأوربا. نحن لا نعرف غير لقمة عيشنا..»

«ظهر أن هناك خيراً بحقكم... إذا قلتم لماذا، فلأنه جلب على رأسكم مهندساً عظيماً، وفوق هذا فهو إيطالي... هل كان هذا المعمل يدور قبل أن يأتي؟ وهل كنتم تعرفون كيف ينسج القماش؟ أما صُحح كل شيء حين جاء الإيطالي؟»

كان يضحك متراخياً بعد هذا. والعمال يطلقون الشتائم.

اصطحب معلم النسيج الآغا إلى نول ابن اخته صادق العين الزجاجية. كان صادق صاحب العينين الشبيهتين بكرات الزجاج عندما توضع أمام الضوء ينتظر أوامر الآغا.

قال الآغا: «شغل، شغل نولك لكي نرى!»

وضع صادق العين الزجاجية مكوكاً جديداً بيدين معتادتين، ودور نوله. دار النول بصوت صاخب، وانطلق المكوك كالصاعقة، وراح وعاد، وراح وعاد، ثم توقف. انقطعت خمسة خيوط. سحب صادق العين الزجاجية الخيوط المقطوعة، وربطها من جديد، ودور نوله مرة أخرى. بعد قليل، توقفت الآلة مرة أخرى. انقطعت أربعة خيوط في آن واحد.

وقبل أن يجد الآغا الفرصة للسؤال: «لماذا يحدث هذا؟» بدأ صادق العين الزجاجية مستخدماً يديه وذراعيه، وعينيه وحاجبيه: «لم أر نظاماً سافلاً مثل نظام الإيطالي هذا يا آغا. أنا نساج من سنوات طويلة، لم يحدث لي شيء كهذا. لكثرة سحب الخيوط، وربطها لا نستطيع نسج النسيج. قف اثنتي عشرة ساعة على قدميك، ثم خواء... على هذا المسار سنتسول الخبز. كم كان الأمر جيداً في البداية! كلنا كنا مسرورين. والآن؟»

نظر إلى خاله. فهز الخال رأسه من خلف كتف الآغا قاصداً: «تابع، تابع!»

«... حالياً لا نستطيع نسج لفة واحدة في اليوم. نحن أيضاً أناس، ولدينا أطفال ينتظرون لقمة الخبز.»

قال معلم النسيج: «كل من في صالة النسيج يفكرون على هذا النحو، والجماعة على حق. اعمل اثنتي عشرة ساعة، وأجهد نفسك، واحرم نفسك من حلاوة النوم، وبعد ذلك...»

الأغا: «حسنٌ، ماذا سنفعل؟»

قال صادق العين الزجاجية: «اطردوه، وليذهب.»

«اطردوه، ولكن السيد نعمان ربطه بالمعمل بعقد مدته خمس سنوات. لا نستطيع طرده حتى لو أردنا.»

«ولكن العمال لا يعرفون عقداً وما عقد يا آغا. وصلت مع العمال إلى هنا، وغرز السكين حتى العظم. وهنا يوجد عمال، بعرضي إذا سحبوا السكين...»

قال معلم النسيج متظاهراً بالحدة: «ما هذا الكلام؟ وهل يمكن معارضة القانون والنظام؟»

وغمز بعينه.

سأل الآغا فجأة: «من هو شقيق البنت البوسنية التي تعمل في صالة الغزل؟»

«أي فتاة بوسنية؟ هل هي جميلة؟»

«نعم...»

أشار معلم صالة النسيج بإصبعه إلى مكان في الوسط، وانطلق في المقدمة.

احمر خدا صدري، وخاف حين رأى الآغا ومعلمه قادمين نحوه. وأطرق برأسه بقدر ما يستطيع مثل ما فعلت أخته.

سأله الآغا: «هل لديك أخت في صالة الغزل؟»

احمر خدا صدري البالغ ست عشرة سنة والمغطى بزغب أصفر، وقال: «لدي.»

«أبوك؟»

«وأبي أيضاً..»

«ألا يربي أبوك أختك تلك أبداً؟»

قطب صدري حاجبيه. ونظر إلى الآغا وإلى المعلم، ثم إلى موسى النساج الذي يعمل على النول المجاور له. لم يفهم شيئاً أبداً.

تابع الآغا قائلاً: «البنت مشاكسة. ستعاني من الهم غداً عندما تقع بين يدي ابن الناس!» ثم قال: «كيف يسير العمل؟»

نفض صدري كتفه: «سيئ جداً يا آغا..»

«لماذا؟»

الخيوط تتقطع باستمرار. ولكثرة سحب الخيوط المقطعة، وربطها، لا نستطيع نسج قماش..»

«هل حدث هذا بعد نظام الإيطالي؟»

عندما هز صدري رأسه بمعنى: «لا!»، عبس معلم النسيج الذي يمد رأسه من فوق كتف الآغا: «لا!»

ارتعد صدري. كأن لسانه قد ارتبط.

قال الآغا: «لماذا توقفت؟ هذا يعني أنك معجب بنظام الإيطالي!»

وكان السهم قد انفلت من القوس. فتابع قائلاً: «... في الفترة الأولى كان

نظام الإيطالي جيداً، وكنا ننسج قماشاً كالقشدة، ولم تكن الخيوط تتقطع. استمر الأمر على هذا النحو أربعة أو خمسة أيام. وبعد هذا..»

قال معلم النسيج: «هذا الكلام كلام الإزميري! دع هذا الكلام، واحك بشكل صحيح!»

أصر صدري قائلاً: «أنا أتكلم بشكل صحيح!»

«لا تتكلم..»

«أنا لا أتكلم غير الصواب..»

«إذا كنت تتكلم الصواب، فهل كل هؤلاء العمال يتكلمون خطأ؟»

لم ير صدري فائدة من الإلحاح، فعاد إلى نوله، وانكب على عمله.

سأل الآغا بهدوء: «من هو الإزميري؟»

أشار المعلم بإصبعه إلى القصير المكوّر، الذي يعمل على أحد الأنوال الخلفية، وقال: «هناك.. إنه هناك في الوسط تماماً!»

عندما سار الآغا إلى ذلك الطرف، تذرع المعلم بعمل، وتظاهر بأنه يصلح إحدى الآلات المعطلة، ولم يلحق بالآغا.

كان نصرت الإزميري شاباً مثل الجان سريعاً مثل قط، ومفتحاً، وحذراً، ودرس حتى الصف العاشر. شرح سبب انخفاض الإنتاج المباشر باختصار: «... يضع رجال السيد المعلم مسحوق الزجاج على النشاء. ومعلوم أن مسحوق الزجاج يتلف الخيوط. ويتقشر الخيط، ويضعف، وبهذا يتأثر، فينقطع.»

«ما هي مصلحة المعلم من هذا؟»

«قصده طرد الإيطالي من هنا، وبقاؤه وحده...»

كان يتظاهر الآغا بأنه غير منتبه لكل هذا.

وبينما كان متجهاً نحو باب صالة النسيج، كان المعلم ينظر إليه بريبة. وبعد أن أشار الآغا إليه بعينه بمعنى: «تعال!» خرج من باب صالة النسيج خلفه.

كان الطريق بين لفافات الخيوط المنضدة على اليمين وعلى اليسار حتى السقف ضيقاً مثل الباب المؤدي إلى الخارج.

توقف الآغا فجأة. نظر إلى عيني معلم النسيج، وقال: «لا يمكن أن نقطع رجل الإيطالي بهذه الطريقة!»

عندما أراد معلم النسيج أن يعترض، أضاف: «دع الصخب! نحن هنا وحدنا. ولا يوجد أحد غيرنا أنا وأنت. مفهوم؟»

«.....»

«أقول لك أنت، مفهوم؟»

«مفهوم يا آغا.»

«اسمع كلامي جيداً.. لا يمكن أن نقطع رجل الإيطالي بهذه الطريقة!»

«.....؟»

«لو كان الأمر بيدي لأغرقت اللعين بملعقة ماء. ولكن مشكلتي الأساسية هي في الآخر، أي الذي جلبه إلى هنا... مفهوم؟»

«مفهوم يا آغا.»

«السيد نعمان، السيد نعمان... لا رحلاته إلى أوربا، ولا تلك التي إلى أمريكا تفيد شيئاً.. ألا ترى خصوصياته؟ وهل يختلف عن الكافر بشيء؟.. جلب على رأسنا بلية كبيرة.. ألف ليرة في الشهر، ونسبة من الإنتاج، وإكراميات، وغيرها كثير.. أأقول لك شيئاً؟ ولكنه سيبقى بيننا.»

قال المعلم الذي أبرقت عيناه: «اخنق بجانبي رجلاً إن أردت يا آغا، فلن يخرج مني خبر.»

«... أنا أريد أن أجد طريقة أصرف فيها السيد نعمان هذا...»

«في الحقيقة أن هذا هو الأسلم.. ما هذا؟.. ملأ المحاسبة بالموظفين خريجي المدارس. كان هناك كاتبان أو ثلاثة فيما مضى.. وكان العمل هو العمل ذاته، والحساب والكتاب هو الحساب والكتاب...»

«طبعاً يا عزيزي... ملأ المعمل بالكلاب..»

«معك حق يا آغا...»

«أقول لك من جديد، أصغ لكلامي، وافتح عينك، لا يمكن قطع رجل الإيطالي بهذه الطريقة!»

تبادلا النظر مدة!

«... أما بالنسبة إلى كيف ستنقطع رجله، فتعال عندي في زمن مناسب، وقابلني.. تعال إلى البيت إن أردت.. تعال ليلاً. مفهوم؟»

«مفهوم يا آغا، كما تأمرون، على رأسي...»

«هيا اذهب إلى عملك!»

خرج من الباب السفلي لمستودع الخيوط، واتجه نحو قسم المحاسبة.

لم يكن معلم النسيج يتوقع أن الأمر إلى هذا الحد، فقال لنفسه وهو ينط فرحاً: «عندما يكون معي، فإنني أتعلق بذيل النجوم!» ودخل إلى صالة النسيج. عبر من جانب صدري الذي مازال خائفاً حتى تلك اللحظة، ووضع يده على كتف ابن أخته العين الزجاجية. ذهب مع ابن أخته إلى غرفته.

8

حين وصل الآغا إلى قسم المحاسبة كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف. دخوله إلى قسم المحاسبة قوبل بمراسم كما يقابل دائماً.. نهض

الموظفون الجالسون إلى طاولات لامعة على اليمين وعلى اليسار، ويطرقون برؤوسهم على دفاتر ضخمة.

كان يدوخ إعجاباً بوضع المتعلمين أمامه، والسخرية منهم، وتلقي الاحترام الجم من الموظفين الذين يتقاضون منه راتباً. وكان حاداً أكثر إزاء أشخاص مثل الأطباء والمهندسين والمحامين، فيكن لهم مزيجاً من الغيرة والطموح لأن يكون مثلهم. وعندما يُفتح الحديث هنا وهناك، يضع الحجر في الهدف مباشرة، فيقول: «صاروا أطباء، وصاروا مهندسين، وصاروا محامين، ماذا يعني هذا؟ عندما يقفون أمامي، ألا يعقدون أذرعهم؟»

واليوم أيضاً نهض كل من في المحاسبة حين دخل كما يحدث في كل مرة. كاتب واحد فقط، هو ذاك الذي طرده من صالة الغزل لم يبال به. كان لا يحب والد هذا المحاسب الذي قبله في العمل شريكه السيد نعمان مثل ما لا يحب شريكه نفسه. كان يكره كثيراً أولئك الذين يعرفون ماضيه ويصفعونه به في وجهه، ويسخرون من جهله، وخاصة أولئك الذين يبحثون في قضايا الأصل والنسب وما شابه ذلك.

وبينما كان الكاتب يبدو منكباً على دفتره يدون أموراً ما، كان يقول في سره: «تألم لأنني طردته، هذا هو السبب، أليس كذلك؟ طبعاً أطرده. أنا الذي أعطيه معاشه!» ويزداد غضبه.

أما الكاتب فلم يكن قد رآه حقيقة. ولم يكن يتقبل بأي شكل طرده «المهين» أمام الناس كلهم، وخاصة أمام جميلة، ويفكر بكلمات أمه التي قالتها قبل سنوات طويلة.

ارتبطت أمه بزوجها طوال حياتها دون قيد أو شرط، واحتملت غضبه، وشتائمه، وحتى ضربه، ولعلها المرة الأولى والأخيرة التي تمردت فيها عليه.

بينما كان أبوه الضخم البنية يتجول في الموزع العريض للدار، ويصر بحذائه اللين الجلد، صرخ: «.. إذا لم يدرسوا.. ولم يحصلوا تحصيلاً عالياً، فهل ستقوم القيامة! ثم ماذا سيحصل إذا درسوا؟ ماذا سيحصل إذا فتحوا أعينهم، ورقت أحاسيسهم غير أن يحزنوا من القبح المحيط بهم؟ الأفضل أن يكونوا أصحاب مهن صغيرة، ولا يفكروا إلا بتأمين الخبز لأولادهم!»

في تلك اللحظة قفزت أمه الضئيلة الحجم، والتي تعيش بحالها وذاتها، حاملة رأس بصل بيد وسكين بيد مثل أنثى نمر، وانتصبت في مواجهة زوجها، وصرخت: «سيدرسون! أفضل الموت على أن يفرك أولادي بأيديهم أمام الآخرين أذلاء. أولادي سيدرسون مثل أبيهم.

كان يعتقد بأن طرده من صالة النسيج دون أن ينبس، يجعله الذليل الذي ذكرته أمه في ذلك الوقت. ولُكز من كتفه عندما كان يفكر بما سيفعله من أجل التخلص من هذا الوضع. التفت. كان الآغا. قفز على قدميه، ولكن حدث ما حدث. نظر الآغا غاضباً ومقطباً الحاجبين الكثين كما كانا في صالة النسيج تماماً.

بعد فترة طويلة، سأل: «ما اسمك أنت؟»

ذكر الكاتب اسمه. واستغرب من تصرف الآغا كأنه لا يعرف الاسم.

سأل بالثقل نفسه: «أليس لك أب وأم؟ ألا يوجد شخص كبير يرعاك؟»

تصرف الآغا الذي يعرف كل شيء على هذا النحو أدهش الكاتب إلى أقصى الحدود.

«يوجد يا سيدي.»

«ألم يربوك أبداً؟ ألم يقولوا لك بأنه يجب أن تنهض على قدميك باحترام عندما يدخل شخص أكبر منك؟»

تلعثم الكاتب: «كنت مشغولاً يا سيدي. لم أركم، أنا آسف.»

«كنتَ مشغولاً. لم ترني. خربتم بيتي. أنا كنت أجري حسابات هذا المعمل على الحائط قبل أن تأتي، وتشتغل هنا. وكان شغلي يمشي أيضاً. ما هذه المحاسبة وما محاسبة، والحساب والكتاب، والكلام الفارغ.. إنه مصروف زائد... يأتي آخر الشهر، فتهرعون إلى الصندوق. ما العمل الذي تقومون به أصلاً؟»

كان يريد أن يسحق الكاتب بنظرته.

أما الكاتب فلم يكن يجيب أيضاً. فكر بأنه ذليل. إنه ذليل مجبور على فرك يديه أمام الآخرين، والصمت في الأوقات التي يجب ألا يسكت فيها، والصمت إزاء الظلم، والصمت رغم أن ضميره يأمره بأن يتكلم، وأن يصمت حتى إزاء الشتائم، وبالنتيجة يصمت في أكثر الأوقات التي يجب أن لا يصمت فيها من أجل مرتب أربع وعشرين ليرة وخمسة وتسعين قرشاً!

مع أن وعيه لا يريده أن يكون على هذا النحو أبداً. لولا جميلة لتخلى حتى عن الأربعة والعشرين ليرة والخمسة والتسعين قرشاً، ولصفع وجه الرجل بالدفتر والقلم والمحبرة والآلة الحاسبة وكل ما على الطاولة، ولم يفكر بما سيؤدي إليه هذا الأمر.

ولكن... كان وحيداً إلى حد...

قال الآغا: «عديم تربية!»

سار ببطء ساحباً وراءه الثقل الذي حل على قسم المحاسبة، وغادر.

انهار الكاتب وراء طاولته، ووضع رأسه بين يديه.

كان موظفا الملاحظة الأولية اللذان يعملان أحدهما بجانب الآخر على طاولة طويلة في الجزء الأيمن، وأحدهما مسؤول عن الدفتر الكبير، والآخر معاون حسابات، والأول مكتنز أبيض وسيم، والآخر أسمر نحيل قبيح، وفوق هذا معجب بنفسه - كانا- لا يتسعان لنفسيهما من الفرح.

لكزت الساق النحيلة الساقَ المكتنـزة كأنها تريد أن تقول: «انظري إلى المباهي المخبول هذا!»

أجابت الأخرى: «أنا منتبهة. أين الكرامة والمكانة والفتوة؟»

استمرت ساقا الرجلين بالحديث:

«تافه... لو كان رجلاً لما احتمل تلك الكلمات! وهل تلك الكلمات من النوع الذي يمكن أن يحتمل؟ قال له عديم تربية يا هذه!»

«يقول.. إنه يدفع راتبه.»

«هيا أنت أيضاً.. ألأنه يدفع راتباً فقط؟»

«ما هذا؟ أنتِ أيضاً؟»

«لو كان قد قال لك هذا، فهل تجيبينه؟»

«طبعاً أجيبه!»

«طز.»

«طز فيك. سلالتك....»

«.....!»

«.....!»

9

المدير العام اليهودي سلمون عريض الكتفين وضخم اليدين يذكر بسمك الدب، وقد دلى أنفه الضخم إلى أوراق أمامه، ويستمع للسينيور أورلاندو الذي يحكي بحرارة بلغة فرنسية ذات لكنة إيطالية وهو يجلس على المقعد المجاور له.

يقول أورلاندو: «إنه يخرب عملي، أنا منتبه لهذا! إنهم يفعلون ما بوسعهم لتخفيض كمية الإنتاج... إنهم يأملون بأن يضربوا عصفورين بحجر واحد!.. وعلى هذا الأساس فإن إدارة المصنع من جهة، وعماله من جهة أخرى، وخاصة المهتمين منهم سيقفون ضدي. إنها ردة الفعل ذاتها إزاء التجديد كله، معلوم... شرحت كل شيء للسيد نعمان. السيد نعمان رجل أكابر، ورجل مثقف، وهو يحمل رؤية مستقبلية بقدر أوربي!»

«هذه حقيقة.»

«ولكن الآخر إقطاعي بكل معنى الكلمة. وهو من النوع الأسوأ. لماذا يتجول في المصنع؟ عليه ألا يهتم بهذه الأمور، ويتركها لك ولي. ليطالبنا بسير العمل!»

جاء اليهودي سلمون إلى تشيكوروفا بخف مثقوب الأرض، وقميص داخلي قذر، وقبعة قش قذرة لكي يجرب حظه، وعمل موظفاً في مستودع، وكاتبَ قبان، وبعد هذا تجرجر كثيراً في قرى وقصبات تشيكوروفا، وكان مفتح العينين ماكراً ابن ماكر، ولا تسقط له دمعة على الأرض، ففعل ما فعل ليستحوذ على هذا المصنع، ويسيطر عليه تماماً..

بفرنسيته المكسرة، وقليل من الألمانية، ومفهومه الإفرنجي، اصطاد السيد نعمان رشدو، وبحسابه الدقيق كبقال، ولا مبالاته اصطاد قادر آغا، ودخل أعينهما.

كان منتبهاً للمصالح المتناقضة في المصنع. ولكنه يتظاهر بأنه لا يفهم التضاد الذي تمتد جذوره إلى السيد نعمان رشدو، وقادر آغا لأنه يجد أن وقوفه إلى جانب أحد الطرفين لن يكون لمصلحته.

وبينما كان يستمع للإيطالي الذي احمر وجهه الأحمر إلى أبعد الحدود، ويتكلم مثل بندقية رشاشة أتوماتيكية، كان يلقي نظرة إلى الرسائل التي وردته

في ذلك اليوم عبر البريد، ويضع رسائل طلبيات الخيوط والقماش على طرف الطاولة لتسليمها للقسم التجاري.

تابع السينيور أورلاندو قائلاً: «أبلغوا الآغا رجاء، لئلا يعذب نفسه، ويدخل إلى المصنع. أنا مهندس هذا المصنع. إذا كان هناك ما يريد أن يسأل عنه، فليطلبني، ولأقدم له المعلومات اللازمة!»

رفع رأسه سلمون فجأة، وقال: «لا تتعب نفسك. لا يمكن قول هذا لقادر آغا. وإذا قيل فلن يكون له أي تأثير. قادر آغا بدائي بقدر بقال، بقال جاهل جهل مدقع. بالطريقة التي يفتح فيها بقال وسط الأناضول دكانه كل صباح بالبسملة، فهو يمسح غبار مطرباناته، ويداعبها، ويحنو عليها. أما بالنسبة لقضية خلط النشاء بمسحوق الزجاج.. فهذه قضية مهمة، ومهمة جداً. عليكم أن تطرحوا ما تعرفونه عن الموضوع. وإلا فإن القول إن قادر آغا هكذا، وهكذا لا يجدي نفعاً.. هل لديكم خبر حول خلط النشاء بمسحوق الزجاج؟ من هو هذا المخرب؟»

«برأيي إن الذي يفعل هذا، أو على الأصح يأمر بفعل هذا معروف..»

«من؟»

«معلم النسيج!»

«من الطبيعي أن يتم هذا بتشجيعه. ولكن من الذي يخلطه؟»

«هذا عمل جماعي. لا أستطيع القول حالياً فلان الفلاني. أنا اتخذت إجراءاتي، وسأقبض عليه متلبساً بالذنب. ومع هذا فإن هذه ليست أموراً لم تقع، ولم تُر. تسعون بالمائة من العمال، مساعدو المعلمين وغيرهم، وعلى رأسهم المعلمون، وحتى قادر آغا ضدي. إنهم ينظرون إلي نظرة حقد، ويهمرون، ولا يريدونني!»

ضحك المدير العام، وقال: «هذا يعني قادر آغا أيضاً ها؟»

«بالتأكيد... وإلا فلماذا يتجول في المصنع؟»

«ماذا نفعل؟ حضرتكم عملتم في وظائف مهمة في المصانع، في مكان مثل إيطاليا! بالتأكيد ستوقفونه عند حده!»

«إيطاليا، فرنسا، الهند...»

«لا توجد مشكلة.»

عندما ظهر قادر آغا عند الباب الجانبي، نهض المهندس الإيطالي بهدوء، وخرج من الباب الآخر، وذهب.

نظر الآغا نظرة حقد، وقال: «بماذا يقرقع من جديد؟»

ضحك المدير العام فقط.

«كان يتكلم عني، أليس كذلك؟»

«الشكاوى المعروفة يا سيدي...»

واستمر بشغل نفسه بالأوراق الموضوعة على طاولته.

اندس الآغا أكثر قليلاً بالطاولة، وقال وهو يغمر بعينه: «ماذا يقول؟»

«قلت إنها الشكاوى المعروفة ياه.. إنه يغضب من تجولكم على الورشات. ويقول إذا أراد أن يعرف شيئاً، فليطلبني، ويسألني.»

نهض الآغا غاضباً، وقال: «قل لهذا المخبول إن قادر آغا يقول لم يأخذك شريكاً ثالثاً في المعمل! المال مالي. أشعل عود كبريت، وأحرقه إن أردت. مفهوم؟»

«معك حق يا آغا... ولكن...»

«ولكن ماذا؟»

«يصعب شرح هذا له... في أوربا...»

«هذا المكان ليس أوربا، ولا غير أوربا! هذه تركيا، ليفتح عينه، وإذا

لم يفتحها، يفتحونها له... إذا أعجبه فهذا الذي سيحدث، وإذا لم يعجبه، فليسحب نفسه، ويذهب إلى بلده. إذا كان لا يعجبه المكان هنا، فلماذا جاء؟»

لم يجب اليهودي سلمون لأنه لا يحب موضوع القوميات..

نظر إليه الآغا مطولاً، ثم سأله: «أخشى أنك إلى جانبه؟»

ارتعد سلمون كأنه إبرة غرزت في لحمه، وقال: «ما مناسبة هذا الكلام يا سيدي؟ أنا عرضت فكرته فقط يا سيدي.»

«أنت أيضاً كافر مثلاً.. ولكن كافر عن كافر...»

«لا، أنا لست كافراً...»

«لماذا؟ ألست منهم؟»

«لاااا..»

«هل هذا حقيقي ولد سالمون؟ هل أنت لست منهم حقيقة؟»

«أنا بنصف ختان.»

«يعني إنك نصف كافر...»

تضاحكا.

قال الآغا فجأة: «انتظر قليلاً، سأخربها معك أنت أيضاً...»

«لماذا؟»

«ما هو عملك أنت هنا؟ هل أنت مدير عام، أم رأس حمار؟»

كان سلمون الناضج في غاية الهدوء: «لماذا؟»

«أنت لا تهتم بالمعمل أبداً!»

«مثلاً؟»

«وهل في هذا الأمر مثلاً؟ العمال كلهم يشتكون من الإيطالي. لا يعجبهم

نظام الرجل، لا يعجبهم أبداً. هل تستدعي العمال، وتأخذ إفاداتهم؟»

«غير هذا؟»

«الكتاب يلاحقون البنات في ورشة الغزل...»

«غير هذا؟»

«يا هذا! هل تأخذ إفادتي مثل نائب عام؟»

«أستغفر الله. أريحوا أنفسكم أنتم.»

10

وجد الآغا الجمال خليل الأنكش في غرفته يجلس على أحد المقاعد الجلدية، وقد لفّ ساقاً على ساق، قال له: «ما هذا؟ خير إن شاء الله؟»

نهض الجمال خليل الأنكش فوراً، وقال: «أنا مقاطعك!»

«لماذا؟»

«هل أنا لي وضع خاص في هذا المعمل، أم لا؟»

«وهل هذا كلام يا خليل؟ أشعل عود كبريت، وأحرقه.»

«إذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا لا تربط الكلب الذي عندك؟»

«ماذا يوجد؟ ماذا صار؟»

وضع خليل يديه خلف ظهره، وقال: «أنا كنت أعتقد أنني صاحب هذا المعمل، وأنك تحبني مثل ابنك.. ولكن...»

«إيه، أرجوك، لماذا لا تحكي ما الذي حدث معك يا خليل؟»

«عندك كاتبك هذا ياه، كاتب القطن المحبوب، أو شيء من هذا القبيل.. أمسكنا الرجل، وطردنا من غرفته!»

«طردك؟.. كيف يطردك؟»

«إنه طردني. طردني بكل معنى الكلمة...»

«كيف يطردك يا هذا؟»

«طردني بكل معنى الكلمة يا آغا... ولكنني أخذت بعين الاعتبار خاطرك. خاطرك على رأسي من فوق.. وإلا كنت سأنكر أن لي رباً، وأصفعه على وجهه صفعتين ثقيلتين.. أنا متضايق من جهتين.»

«لماذا تشاجرتما؟»

«لا شيء يا ناس. كلام تافه! اعتبرناه رجلاً، فذهبنا إلى غرفته، وجلسنا قليلاً... أطفئ سيجارتك! قلت له إن نار سيجارتي هذه لا تحرق المعمل، لا تشغل بالك. لا، لابد لي من إطفائها.. وقال إنه أمر الآغا، وما شابه. قلت له إن الآغا لا يقول لي شيئاً كهذا، يحبني كولده الذي من ظهره، ولكن لا تغيير.. في تلك اللحظة مررت أنت، وذهب من خلفك، وعاد، ومرة أخرى، أطفئ السيجارة، هذا أمر الآغا. طار صوابي. قلت له، ولاه، أنا أفعل بحبيبك... ولكن هذا غير ممكن.. الخاطر ليس للكلب بل لصاحبه، لذلك عددت لك خاطراً.. هل قلت أنت هذا حقيقة؟»

«أستغفر الله يا خليل، والله لا علم لي بالأمر.»

«حسنٌ، كيف يجرؤ هذا على هذا؟»

«إنه يتكلم من نفسه.. أنا أعتبرك أعز من أخي مثلاً...»

إذا كلتُ له واحدة، فإن نصفها سيذهب في الخلاء. ولكن النقطة التي أحترمها مختلفة.. مفهوم ياه؟»

«لا تتعب نفسك.. تكلم من عنده المنكوح. لو كنت قد قلت هذا، فلا أسحب كلامي مهما حصل. أقول إذا قلت، وإذا لم أقل فلم أقل. لا تتعب أنفاسك.. عممنا منع التدخين داخل المعمل، ولكن هذا لا ينطبق عليك طبعاً.»

«ليس أمراً مهماً، ولكنه أضحك عدداً كبيراً من الحمالين علي.. أأقول لك شيئاً؟ لأفهم أنك تحبني، عليك أن تستدعيه إلى هنا، وتعرفه قدر نفسه، ليبرد قلبي أيضاً!»

«لا ترد على الأمر يا رجل. هؤلاء جماعة أجراء، يتقاضون رواتب. كيف ما نظرت، فإنهم لا يساوون خمسة قروش. تكلم باسمي معك.»

قال الجمال خليل الأنكش: «لا، استدعه وأنا موجود...»

«إنهم جماعة الرواتب يا رجل، كيف ما نظرت...»

«لا، لابد من استدعائه أمامي...»

انتقل إلى خلف طاولته يائساً، وضغط على الجرس. وبعد أن أمر الآذن باستدعاء كاتب القطن المحبوب، وضع نظارته ذات الإطار الذهبي على عينيه.

«آغاك يسأل عنك؟ هل أوضاعك جيدة؟»

«حتى السلطان سليمان ليس موجوداً في عالم آغاك. جلبتُ فتاتين من فتيات البار!»

ضحك الآغا.

«اثنتان ها؟ هل هذا صعب؟»

«ماذا تقول يا آغا؟.. ما قاله لقمان الحكيم...»

«هذا يعني أنهما اثنتان؟»

«... اثنتان تجننان! إحداهما بيضاء وشعرها أشقر، والثانية سمراء، وشعرها كالزمرد...»

«هل تقيمان في المزرعة؟»

«نعم... ألا يوجد طابق ثان شربتم فيه العرق؟.. فرغه بالكامل، وأرسل الأولاد وما أولاد من أجل التسجيل في المدارس.»

قرع الباب، ودخل كاتب تسجيل القطن المحبوب.

قال الآغا الذي قطب وجهه فوراً: «ألم أمنعكم من الحديث باسمي، وأمرتكم بأن يتكلم كل منكم باسمه؟»

نظر الكاتب بطرف عينه إلى الجمال خليل الأنكش: «قلتم يا سيدي.»

«إذا كنت قد قلت، فلماذا تتكلم باسمي؟»

«كان يدخن سيجارة. رجوته أن يطفئها، لم يسمع كلامي. وأنا...»

«وأنت أيضاً قلت إن الآغا يقول كذا وكذا؟»

أطرق الكاتب برأسه.

قال الآغا: «تفضل.. لم أقل هذا. تكلم معك باسمي.. أنا لا أتراجع عن كلامي مهما كلف الأمر.. إذا قلت، أقول قلت، وإذا لم أقل، أقول لم أقل.» والتفت إلى الكاتب، وأضاف: «أنا لا أريد أن يتكرر هذا بعد الآن، ليتكلم كل شخص باسمه. هيا، إلى عملك!»

حيا الكاتب الآغا، وخرج وهو يمشي إلى الوراء.

قال الجمال خليل الأنكش: «الله يعطي أمثال هذا قرعة، ولا يعطيهم ظفراً.. أعطوا غجرياً سيادة قبيلة، فأعدم أباه فوراً.»

«صحيح يلزم الضعيف كلب على بابه. هذا ما سمعناه من آبائنا، وأجدادنا، ونعرفه...»

بعد أن خرج الجمال خليل الأنكش من الغرفة، نادى الآذن، وشتمه، ولم يترك كلاماً لم يقله له لأنه أدخل الجمال خليل الأنكش إلى غرفته.

قال الآذن: «لم يسمع مني يا آغا. وقال إن الآغا يحبه أكثر من ابنه الذي من ظهره.»

«ليقل هذا، لا تسمح له!»

«خشيت أن تغضبوا..»

«لا تنظر إلى غضبي.. لا أريد أن يتكرر هذا... هيا!»

خرج الآذن. وسحب الآغا كدسة أوراق إلى أمامه، وبدأ يتدرب على التوقيع الذي تعلمه حديثاً. كان ذلك التوقيع عبارة عن أربعة أو خمسة خطوط متوازية.

غط في قضية التوقيع وفي يده قلم حبر ستيلو لامع، وعلى عينيه نظارة، إلى حد أنه لم ينتبه لفتح الباب، ودخول شريكه السيد نعمان شريف.

بعد أن تفرج السيد نعمان شريف على شريكه الجاهل طويلاً وهو عند الباب، قال: «ولد، ولد قادر.. لن أقول إنه لا يليق بك! إذا رآك واحد غريب، يعتقد أنك مدير عام بجد! رأس وأذنان وهيبة...»

خلع قبعته، وناولها للآذن، ودخل ليرخي نفسه على مقعد جلدي في الزاوية.

فتح السيد نعمان شريف عينيه على الدنيا في دار آل قرة قولاق التي لا ينقصها شيء، وعاش حياته كلها برخاء دون حساب، وهو رجل وسيم حقيقة وقد بلغ الخامسة والخمسين. يعرف جيداً جداً كيف يعيش، ويأكل، ويشرب، ويجلس، وينهض، ويقابل الناس، ويتحدث معهم، ويستطيع التعبير عما يريد ليس بالتركية فقط، بل بالإيطالية والفرنسية والألمانية.

عنده قصران في إسطنبول أحدهما صيفي، والآخر شتوي، وعنده بيت ساحلي أيضاً. ويعلق على جدران قصريه، وبيته الساحلي، وشققه لوحات جلبها من باريس ولندن، وهولندا. والقارب البني اللون ذو المحرك الذي اشتراه من أمريكا بما يزيد عن ثلاثين ألف ليرة أمام بيته الساحلي متلامع في كل وقت. والسيد نعمان شريف متعلق بالشعر الصوفي وشعر الديوان بشكل خاص، ويعتبر القبعة طربوشاً، واللغة العثمانية لغة تركية، ويستمتع مع أصدقائه الذين يحلمون بالأيام القديمة، ويستمتعون بهذا الخيال.

وغير آلاف الليرات التي يدفعها كل عام للمؤسسات الخيرية، لم يكن يرد أي فقير يطرق باب بيته، ويعطيه نقوداً وطعاماً، وأشياء قديمة، وهذا وذاك، حتى إنه يدخل المسنين كثيراً إلى الصالون، ويجلس أمامهم، ويقدم لهم القهوة، ويحدثهم، ويدس بأيديهم عندما يخرجون مبلغاً من المال.

لهذا السبب كان محبوباً جداً في البلد. ويُعرف بأبي الفقراء. ويمكن القول إنه قضى غالبية عمره في باريس ولندن وبرلين وروما والقاهرة. علاقته بالمصنع عبارة عن نقل النقود التي تحسب له من حصته بعد الجرد السنوي إلى ثلاثة بنوك مختلفة.

انتشرت في الجو رائحة لوانتا رائعة.

نهض قادر آغا عن طاولته وقد فقد متعته، ورفع نظارته على رأسه، ووضع قلمه الحبر ستيلو مكانه.

قال السيد نعمان شريف: «اجلس، اجلس.. لماذا نهضت؟ يليق بك جداً.»

قال الآغا: «اترك طاش قلعة يا سيدي، نحن مهما بلغنا، فوضعنا معلوم...»

«هذا لا يعرفه الجميع يا عزيزي. لا أحد يجلب معه عندما يولد أوسمة الأصالة.. كل هذه الأمور تأتي فيما بعد.. اجلس، هيا اجلس. وهي تليق بك..»

«دع عنك هذا، أنا متضايق يا سيدي.»

«لماذا تتضايق، قل لنعرف!»

«وضع هذا المعمل..»

«لم تتعلم قول مصنع.»

«لساني لا يطاوعني.»

«ماذا يوجد في وضع المصنع؟»

«شُف الإيطالي، وخله يحكي لك!»

«ليس شوف، قابل.. ودعه يشرح لك.»

«المهم..»

فجأة نهض السيد نعمان شريف على قدميه، ونظر في عيني قادر آغا، وقال: «تحدثت معه. تحدثت مع الإيطالي، ومع من يجب أن أتحدث معهم يا حضرة الآغا. والقناعة التي توصلت إليها، هي أنك لست إنساناً جيداً!»

كان أطول من قادر آغا بشبرين، وأضخم منه، وأكثر مهابة...

«.....؟»

«أنت إنسان سيئ جداً يا قادر. إذا جئت إلي، وقلت لي سأنهي الشراكة..»

«من قال هذا؟ من قال إنني سأخرج من الشراكة؟»

«لا تحدث صخباً. لو جئت إلي، وقلت إنك تريد أن تشتري حصتي، انقلها لي، لعلني كنت أقبل. ولكن الآن؟ عندما سمعت بأنك تلعب ملعوباً من وراء ظهري بذكائك الساذج...»

«أي ملعوب؟ من قال هذا؟»

قطع السيد نعمان شريف الحديث بالقول: «المهم، لا أريد مزيداً من الكلام. سيبقى الإيطالي في المصنع، وهو سيمثلني عندما لا أكون موجوداً!»

تضاءل قادر آغا أمام هيبة السيد نعمان شريف، وقال: «اشرح هذا للعمال! ليس هناك ما يهمني. حضرتكم وقعتم عقداً مع الرجل لخمس سنوات...»

«ليس رجلاً، إنه مهندس، وهو مهندس أوربي كبير، رجل علم.»

«المهم، هذا لا مهمني...»

«ليس لا مهمني.. لا يهمني...»

غضب السيد نعمان شريف أكثر من أي مرة وهو ينظر إلى شريكه الذي يخرج من الغرفة وهو يتمتم: «مهما يكن..»، وضغط على الجرس، وقال للآذن: «ناد لي المدير العام!»

بعد قليل دخل المدير العام الكبير الأنف وهو يفرك بيديه، وقال: «أمرك يا سيدي.»

هدر السيد نعمان شريف قائلاً: «أنا أصدر لك أمراً، فافتح أذنيك. عندما لا أكون في المصنع فإن السينيور أورلاندو هو ممثلي الشخصي... هذا أولاً، أما ثانياً، من لا يحترمه، ولا ينفذ أوامره حرفياً يطرد فوراً. وإذا مُست شعرة منه في المؤامرة التي تُعد منذ أيام ضد الإيطالي...»

فرك المدير العام بيديه: «ماذا أستطيع -أنا محسوبكم- يا سيدي أن أعمل في هذه الحال؟»

«تسأل ماذا تستطيع أن تعمل؟ تخبر مديرية الأمن فوراً..»

«بالتأكيد يا سيدي، هذا معلوم..»

«أنا لا أطلب منك شيئاً آخر...»

بدأ يمشي في الغرفة بين الزوايا: «.. واحد مخبول، وحيوان، ومختل. كلب جائع، جهل أسود.. جلبناه، واعتبرناه شريكاً لنا، وذهبنا، وحلينا أمر شراء المصنع في أنقرة، بعد ذلك، الرجل.. الله يبعث لك يا حافي. نسي أيام انتظاره فراء الأرانب أمام باب محمود باشا، وحمله على الحمار الرمل والحصى إلى الأبنية، ودهنه الخبز بالجبن، وأكله المخلل..»

وبينما كان منتبهاً لخيال إنسان يقف أمام النافذة، سأل المدير العام: «من هذا الواقف هناك؟ ماذا يريد؟»

ذهب المدير العام، ونظر، ثم عاد: «واحد من كتابنا..»

«ماذا يريد؟»

«يريد أن يقابلكم.»

«حول ماذا يريد أن يقابلني؟»

«لا أعرف يا سيدي.»

«ناده، وليأتِ.»

كان هذا الكاتب الذي طرده قادر آغا صباحاً من ورشة الغزل، ثم أَنَبَهُ في قسم المحاسبة. عرف السيد نعمان شريف الشاب الذي أدخله هو إلى المصنع قبل سنتين، وهو ابن أحد أصدقائه أيام النضال القومي.

«تفضل، هل لديك أمر؟»

«نعم يا سيدي. لدي ما أقوله لكم.»

نظر إلى المدير العام بطرف عينه. قال السيد نعمان شريف: «تفضل!»

بدأ الكاتب بشكل بطيء، ولكن غضبه ازداد تدريجياً، فحكى بنقمة، فقال السيد نعمان شريف: «واخ من الكلب واخ! واخ من هذا الذي لا يسوى قرشين واخ! عندما كان أبوك يعمل من أجل هذا البلد، كان... لا تجعلني أفتح فمي.. السافل سارق الأكفان. ليبلع هذا للذين لا يعرفون مصدر ثروته. كلب!»

نظر المدير العام إلى الكاتب بغضب وكأنه سيأكله، وأشار له برأسه بما معناه: «اخرج!» تردد الكاتب. وعندما كرر المدير العام الإشارة، حضر الكاتب نفسه للخروج، تمتم السيد نعمان شريف «لص، ومجرم» والتفت بداية إلى المدير العام، وسأله قائلاً: «ماذا يحدث في المصنع يا سلمون؟» ثم قال للكاتب: «اذهب أنت الآن، وعد إلى عملك!»

التفت إلى المدير العام من جديد: «رعاية هذا الشاب عندما لا أكون موجوداً برقبتك، مفهوم؟»

لم يكن المدير العام مسروراً أبداً..

«أقول لك، مفهوم؟»

«مفهوم يا حضرة السيد، بالتأكيد، هذا عملي.»

«أعطني من هناك ورقة...»

سحب ورقة من كدسة الأوراق التي كان قادر آغا يتدرب على التوقيع عليها، ومدها نحو السيد نعمان شريف.

كتب السيد نعمان شريف بقلم الحبر ستيللو الظريف بشكل متوتر، منظماً تقريراً يزيد فيه راتب الكاتب الذي دخل قبل قليل عشر ليرات، ووقع تحته، ومدها نحو المدير العام.

استعرض المدير العام التقرير بسرعة، وإذا كان أراد أن يعترض قائلاً: «ألن يكون هذا منافياً للأعراف يا حضرة السيد؟.. الموظفون الآخرون..» فإن السيد نعمان شريف، هدر بصوته: «لم أطلب رأيك، يا الله، تحرك من هنا!»

خرج المدير العام حاملاً الورقة، وذهب.

11

الساعة المدورة فوق الباب المكتوب عليه «باب العمال» كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف ظهراً. وفي الحادية عشرة والنصف بالضبط، توقف عمل صالة النسيج. والآن تخرج العاملات من صالة الغزل بصداراتهن السوداء، وأغطية رؤوسهن البيضاء مزدحمات، وبكثافة.

أمام المصنع ما يشبه السوق الأسبوعي: صراخ باعة العنب، والمكسرات، والبرتقال، والحلويات المتنوعة، والكفتة الجافة، والكعك تتداخل فيما

بينها. والذباب المغذى المتطاير بمتعة تحت أشعة الشمس الحادة يحط على المأكولات، ويطير.

كان أبناء المنطقة السهلية غير المعتادين على هذا الصخب، والذين لم ينسجموا معه ومع هذا التمازج، ينظرون بعين الاستغراب إلى هذه الفوضى التي يحدثها الشباب العاملون في صالة النسيج، هؤلاء العمال الشباب الذين يشدون صدورهم نحو الشمس بنشوة الحرية التي حصلوا عليها بعد عمل متعب لاثنتي عشرة ساعة، تراهم يلحق أحدهم الآخر أو يستند أحدهم إلى الآخر وهم يتفرجون على بنات صالة النسيج، ويسمعوهن كلاماً، وإلى حمالي المصنع، والأولاد الحفاة...

وكان هؤلاء بالألبسة المهترئة كثيرين إلى حد...

دخل النساج صدري إلى بقالية الجمعية. والدكان كما هو عند كل انصراف يغص ويفيض بالعمال. وكان البقال ذو النظارة البيضوية العدستين، والفضية الإطار ويرفعها على رأسه، وأجيره ذو الساعدين الحمراوين يكدحان من أجل أن يزينا بعشرة قروش حلاوة طحينة وزيتوناً أسود، أو باثنتي عشرة ليرة ونصف أرزاً أو عدساً أو ملحاً، أو يعطيان زجاجة مصباح أو مبيض غسيل أزرق أو صموناً أو سجائر.

كان الزبائن يتململون.

«يا محمود آغا!»

«هل سيتأخر أكثر يا عمي محمد!»

«يا عمي محمود.. أنا جئت قبلهم كلهم، وبقيت خلفهم كلهم...»

يا عم محمود..»

كانت قد بدأت نوبة ألم الباسور عند محمود آغا. أطلق شتيمة ثقيلة قائلاً:

«واخ من أم محمود آغا، وعرضه!»

تصاعدت القهقهات.

قال النساج موسى المكور مثل برميل: «زعررر!!!»

أطلق صادق العين الزجاجية بفمه صوتَ: «طززززز». وقال الجمال خليل الأنكش: «اسحب يا أخي، لم يبق عندك غير طلعة واحدة!»

وحين ضحك محمود آغا، تصاعدت القهقهات من جديد. اغتنم محمود آغا الفرصة، وتناول كأس عرقه من عيار تسع وأربعين، وقلبه، وبعد أن ألقى إلى فمه قطعة مخلل خيار مفروم، فرك يديه، وقال: «أخذنا جرعتنا، اطلبوا الآن!»

مرة أخرى بدأت تتعالى الأصوات من كل لسان:

«باثنتي عشرة ونصف أرز..»

«ناولني قطعتي مبيض من هناك..»

«زجاجة المصباح التي طلبناها يا عمي محمود..»

«هكذا إذاً.. كنت ستعطينا الصمون الذي طلبناه...»

«.....!»

«.....؟»

لم يحصل صدري النساج على سجائره حتى تلك اللحظة، وكان ينتظر حاملاً النقود. وبغير إرادته انزلق بصره إلى صادق العين الزجاجية الذي كان ينظر إليه وهو يقف إلى الأمام قليلاً. كان يتكلم بأمر ما مع الجمال خليل الأنكش.

التفت إلى الخلف.

اقترب منه صادق العين الزجاجية الذي كان ينتظر فرصة التعرض له، ولكز صدري من كتفه.

«لماذا أدرت ظهرك ولاه؟»

لم يجب صدري.

«أقول لك ولاه، يا أخو الحلوة! لماذا أدرت ظهرك؟»

كان صدري قد اقترب أكثر من طاولة البيع، فمد النقود، وقال: «يا عمي محمود، ناولنا سجائر من عندك!»

لكزه صادق العين الزجاجية مرة أخرى: «نحن نسألك سؤالاً ولا دب. ألا تعيرنا اهتماماً؟»

«.....!»

«لماذا أدرت ظهرك ولاه؟»

التفت صدري بحنق: «أنت الدب! هل هناك من يحكي معك؟»

رفع صادق العين الزجاجية قبضته، وقال: «اسمع، سأنزل بأمك وأختك ها! لتكن أمي زوجتي إذا ما طيرتك بنفخة! وهل تظن أنني لا أعرف الخـ....ء الذي أكلته بكلامك مع الآغا صباحاً؟ اطلع عن كلمة خالي، وشاهد ما سيحصل لك... سأجعل الذي يسمح لك بالعيش في هذا البلد...»

اقترب منهما الجمال خليل الأنكش حاملاً زجاجتي نبيذ أحمر، وقال: «ما هذا؟ لماذا تضايق ابن حميي؟»

أطلق العين الزجاجية قهقهة ترددت أصداؤها في الدكان.

قال أحد المزدحمين: «اضحك يا أخي، اضحك! من الواضح أن أمك ولدتك في شهر الضحك!»

أخذ صدري سجائره وكان على حافة البكاء لشدة حنقه وهو يخرج من الدكان. وخرج الآخران من خلفه. وانطلقا في طريق بائع الكباب عند نهاية الطريق النازل.

نظر صدري من خلفهما بحقد، وبصق على الأرض، ثم أشعل سيجارة... قال لأبيه ألف مرة بأن يخرج هذه البنت من المصنع. ولتغر النقود التي تحصل

عليها إلى قعر جهنم. سيحل بلاء على رؤوسنا. لا. غير ممكن. ابنتي هكذا، وهكذا. في هذا الزمن... موسى يقول إنني لا أثق حتى بأمي. صحيح. ألسن بنات؟.. لا يعترفن بأم ولا أب، ولا أخ. إذا وضعن عينهن على أحد، فلابد أن يقلن مع السلامة ذات يوم... لهذا لا تهتم...

لعله أعطى موسى النساج حقاً ألف مرة، ولم يهتم بأخته جميلة، ولكنه لم يستطع أن يسحب نفسه، ويذهب. وكان يقف على حذائه المثقوبة أرضه وهو متعب، ويذرع المكان قدام باب المصنع ويدخن السجائر.

نظر إلى الساعة. كانت تقترب من الثانية عشرة. فرغت صالة النسيج تماماً. وأغلق البواب البوسني أحد مصراعي الباب الحديدي. فكر ما إن كانت البنت قد ولجت وسط الزحام وهي خارجة، وذهبت إلى البيت. لم يعط احتمالاً لهذا. لم يبرح نظره عن الباب.. هذا ما يحدث دائماً في الأيام الأخيرة. يخرج العمال كلهم، وهي بعد زمن طويل... لابد أنها تتكلم مع الكاتب. وهو لا يرفض هذا. لأن الشاب مهما يكن فهو كاتب، درس، وتعلم، ويعرف كيف يتحدث، ويفهم بالمدنية. وماذا عن الجمال خليل الأنكش؟ ثم إن الكاتب لعب جناح أيمن في فريق «إدمان يوردو»، وإذا كان هناك شخصان أفضل من يسجل ضربة الجزاء في البلد كله، فهو واحد منهما.

عاد ألم رأسه. وما إن قال لنفسه: «لو تخرج هذه النجسة، ونذهب إلى البيت، وأضع رأسي، وأنام» رأى النساج موسى خارجاً من البقال، ففكر قائلاً: «دون هم».

اقترب موسى منه، وسأله: «ماذا تنتظر؟»

قال صدري: «لا شيء. مخبولتنا...»

«لماذا؟ أما خرجت؟»

«لم تخرج.»

غمز موسى بعينه: «لماذا؟»

قذف إحدى السجائر بواسطة إصبعيه، وقال: «من أين أعرف أنا؟»

«مضى دهر على خروج الجميع يا هذا..»

«مضى، ولكن..»

«هيا، لنشرب شاياً!»

«لا أشتهي.. سأذهب إلى البيت، وأنام.»

«لنشرب شاياً حتى تخرج أختك...»

«لا تهتم.»

«صاحبك نصرت في الداخل، يجادل، ويناقش.»

«لابد أن تخرج جميلة الآن.. ثم إن رأسي تؤلمني.»

«ثمن الشاي مني، لا تخف.»

«ألن يكون معنا ثمن شاي؟..»

«أسمعت الآغا بقضية مسحوق الزجاج، أو شيء من هذا القبيل؟»

«ممن سمعت؟»

«من صادق العين الزجاجية.. يقول إنه سيلعن نفسك.»

«.....»

«لماذا تتدخل أنت يا ابني؟ وهل يمكن مجابهة هؤلاء؟ انظر إلي. أعمل لكل لحية مشطاً. لماذا أناطح كباش الناس؟ الآن هناك أحابيل جديدة تُحاك. سيضربون الإيطالي يوم الراتب. فكر بهذا أنت.»

«هل هذه حقيقة؟»

«لهذا السبب قلت لك لندخل، ونشرب كأسين من الشاي، ما سمعت مني. الإيطالي، ونصرت الإزميري أيضاً... ابتعد أنت عن القضية، ولا تقل

إنك سمعت مني. معلمي النسيج عندنا يحرضون العمال سراً. ومعلم النسيج يحرض عماله.. المعلمون والعمال اتفقوا كلهم معاً، ويتكلمون بلسان واحد... ولا يعدون ليسوا على حق... أي منا ممنون؟.. رح، وتعال مثل العلكة... لكثرة تقطع الخيوط، وربطها، لا نستطيع نسج قماشاً. ليس لدي أمل أبداً من هذا الراتب. لو سمعت من عزت، فهو يقول إنهم يستخدمونكم، لا تتدخلوا، لا فائدة من هذا لكم، وأنتم تحفرون تحت رجله.. حتى لو لم يكن للإيطالي ذنب، فلينقلع طالما أنه سبب نقص أجورنا. ويجب أن نلعن نفسه إذا لم يذهب! ولكن رغم هذا، فالأفضل البقاء بين المتفرجين في الخلف.. ستفعل جيداً إذا لم تفلت لسانك بقضية مسحوق الزجاج!»

«سأل الآغا، وأنا أجبته.»

«هل يجب عليك أن تفرغ ما في داخلك فوراً لمجرد أن الآغا سأل؟»

«نصرت فعل أسوأ من هذا.»

«لماذا تنظر إليه أنت؟ هو يذهب إلى مستنقعه. الإقدام ليس جيداً دائماً. الشطارة في أن تمشي الماء من تحت التبن. أنا لا يعجبني مسير نصرت!»

«ماذا حدث؟»

«أنت ولد. وهل يُسأل ماذا سيحدث؟ هذا مصنع.. ماذا لا يمكن أن يحدث؟ يمكن أن يحدث كل شيء. على الأكثر يوم القبض. عندما سيضربون الإيطالي، سيذهب هذا بين الأرجل أيضاً! هيا لنشرب شاياً.»

أراد أن يسحب صدري من ذراعه، ولكنه قاوم: «لابد أن تخرج الآن، فالساعة اقتربت من الثانية عشرة إلا ربعاً!»

قال موسى: «لو كانت أختي...»

«ماذا كنت تفعل؟»

«أمسكها من رجليها، وأفسخها نصفين. هل تلعب معي؟»

«ألهذا السبب رجلي أختك زهرة مفسوختان؟»

«هل تسخر مني ولد غر؟ أخواتي أكبر مني بكثير يا ابني. أتعرف أختي زهرة هذه، ربتني عندما كنت بهذا القد، وماتت أمي. أليسوا نساء؟ أنا أشك بهن، حتى لو كانت أمي. لا يمكن أن نرفع القبضة عن رؤوسهن. من لا يضرب ابنته، يضرب على ركبتيه حسرة.»

«صحيح.»

«اضغط على أبيك، وأخرجوها من المصنع. أنت تعرف هذه القضية؟ إذا وصل الأمر إلى أذن أبيك، بربي سيمزقها، ويمزقك!»

«ما علاقتي؟ قلت له ألف مرة لنخرجها من المصنع.»

«ما هذه الأيام ولاه.. يُقال إن أباك وأبي كانا غنيين مثل قارون في بلديهما. ما الذي جرى لهما ليتركا ذلك الغنى، ويتأتيان إلى هنا؟ يُقال إن بيتنا كان مثل القصر... وكان هناك بساتين وحقول، تفوه...»

قال صدري: «لو كانت موجودة الآن، فتمدد، ونم... وأبي علق على الذهاب إلى قرغول... ماذا سينتج عن حقل مساحته ثمانية أو عشرة دونمات؟»

«لا شيء يا عزيزي. مجرد نقيق فارغ.. هذا وذاك لا يعمل شيئاً ياه. أبوك يستطيع أن يكون غنياً حتى وهو جالس حيث هو، أليس كذلك؟»

«ألا أقول هذا؟ إنه لا يشفق علينا أبداً... يقص الشعر مجاناً، ويحلق اللحى مجاناً، يقلع الأضراس مجاناً...»

«يجبر كسوراً، ويكوي مجاناً، أليس كذلك؟»

«هكذا والله... مع أنه لو قبض نقوداً، ووفر تلك النقود..»

«سيكون معكم نقود كثيرة عندما تذهبون إلى القرية.»

«من يذهب إلى القرية؟ لا تهتم يا هذا. ما شغلي هناك؟ بينما المدينة موجودة.. ليذهب وحده إذا أراد. لو استطعنا أن ندفع هذه البنت عن رؤوسنا، فالباقي سهل.. أبي أيضاً يسحب نفسه، ويذهب إلى القرية، وأستمتع أنا وحدي. أذهب كل أسبوع إلى الملعب، وإلى السينما. أليس كذلك؟»

«نعم. أمر البنت هذا مزعج. قبل قليل استفزني صادق العين الزجاجية والجمال الممسوخ في دكان البقال. قال له اذهب واهجم على صدري، وأنا أفصل بينكما.»

«هل الجمال خليل الأنكش؟»

«نعم ياه.»

«.....»

«قال يا أخو الحلوة، وقال يا ابن حمي، ولم تنبس. هل يبتلع الإنسان هذه العبارات؟»

«ماذا أفعل يا موسى؟ جناحي مكسور. لو أن لي ظهراً قوياً.. ضربوه على صدره، فصاح يا ظهري...»

«لو كانت أختي، لما تركتها تعمل، ولا أشفق عليها، ولا أسمح لها بالعمل!»

«أما كانت تعمل أختك؟»

«أنا كنت صغيراً. لو الآن...»

«إذا لم تعمل، فإن دخلي لا يكفي. ها هي قادمة. من تلك التي معها؟ هل هي حليمة؟ نعم يا، حليمة.. وتعجبني هذه البنت أيضاً.»

ضحك صدري.

كانت البنتان بصدارتيهما السوداوين المتشحتين ببياض غبار القطن، وغطاء رأسيهما الأبيضين قادمتين بخطوات حثيثة.

قال موسى: «اضغط عليها بقوة ها! لا يمكنك أن ترفع القبضة عن رؤوس معشر البنات، اضغط عليها بقوة!»

قال صدري: «انتظر أنت. انظر ما سأفعله الآن بها!»

انتصب هناك عند باب المصنع، وقطب حاجبيه، وعقد يديه خلف ظهره، وخطا بقدمه إلى الأمام. نفش نفسه مثل ديك رومي وهو ينتظر.»

اقتربت الفتاتان.. وعندما مرتا من أمام صدري، لم تلتفتا لتنظرا إليه.

نادى صدري: «سسس، يا فتوات!»

توقفت جميلة فوراً، والتفتت، وقالت: «ماذا هناك؟»

«أين كنتما حتى الآن؟»

«ما علاقتك أنت؟»

ماذا يعني ما علاقتك أنت؟ مضى دهر على خروج الجميع. نحن ننتظر من ساعة.»

«لو لم تنتظر. هل طلبنا منك أن تنتظر؟ امشي يا بنت، امشي.»

ضحكت حليمة، وموسى أيضاً. ومشت البنتان، وغادرتا.

قال موسى: «ليس لك أي قيمة أمام البنت يا رجل! مرت دون أن تبالي بك. لو كنت مكانك لضغطت على رجلها، وفسختها..»

بصق صدري على الأرض وهو ينظر من خلف البنتين، وقال: «ما الفائدة؟ ماذا أفعل؟ إذا أعطى الأب وجهها لابنته إلى هذا الحد..»

«هذه البنت أكثر رجولة منك يا صديقي. إنها لا تعتبرك أبداً!»

«كم تهيننني أنت يا هذا؟»

ضحك موسى مقهقهاً: «إنها لا تبالي بك، استغفر الله، لا تهتم بك.»

طفحت عينا صدري بالدمع، وقال: «لا أحد يعتبرني أبداً يا صديقي، أنا

أسفل إنسان في هذه الدنيا... حتى الكلاب التي في الأزقة لا تعتبرني... هل لديك ما ستقوله أكثر من هذا؟ لا تحكِ معي!»

وسار نحو المقهى.

ندم موسى. هرع نحوه، وأراد أن يعانقه. انتفض صدري: «اتركني ولاه.. أنت يا هذا...»

«مزحنا معك ولاه. أنت لا تحتمل المزاح يا رجل..»

«وهل يمكن أن يكون هذا مزاحاً؟ يقول مزاحاً. هل أسحب البنت، وأطلق عليها النار، هذا ما تريده مني؟»

تأبطه موسى من ذراعه مرة أخرى، وعادا إلى المقهى من جديد.

12

كان صادق العين الزجاجية، والجمال خليل الأنكش في دكان بائع الكباب الواقع على منعطف الطريق المؤدي إلى حي العمال يشربان النبيذ.

نادى صادق العين الزجاجية صاحب المحل، قائلاً: «أما كنت سترسل لنا تلك الأسياخ؟..»

«فوراً.. اركض يا ولد، وخذ الأسياخ!»

جاء الأجير بأسياخ الكباب والشقف المشوية التي يتعالى منها البخار، ونسل الأسياخ عن اللحم في صحن قذر.

قال صادق العين الزجاجية: «إنها في الداخل حتى الآن. تجد ذريعة لتتكلم مع الكاتب!»

«ماذا تقول البنت السمراء؟»

«تقول إنني حكيت كل هذا الكلام، ولكنها ترفض.»

«هل قالت لها إنني سأملأ ذراعيها بالأساور المبرومة؟»

«قالت.»

«هل قالت لها سأؤمن لها داراً في المدينة؟»

«قالت، قالت لها كل هذا.»

«هل قالت لها إنه يقول سيطعمها مقل عينيه؟»

«أيمكن ألا تقول لها؟ لا أقول هذا لأنها ابنة خالتي، ولكنها تعرف كيف تتكلم مثل محام.

«مع أنها لو وافقت... بعرض أمي أبيع جمالي كلها، وأصرفها عليها!»

«لو لم يكن الكاتب موجوداً..»

وهل تُحب فتاة براتب ثلاثين ليرة يا ناس؟»

«إنه عقل البنت.. هيا لنشرب، بصحتك.»

«الله يديم صحتك..»

رُفعت كؤوس النبيذ، وقرعت، وشربت. مسح الجمال خليل الأنكش فمه بقفا قبضته، وقال: «هل أقول لك شيئاً؟.. لنكتب لهذا الكاتب رسالة.. ولنقل فيها، ارفع يدك عن البنت. إذا رفعتها كان بها، وإذا لم ترفعها، اعتبر نفسك غير موجود! إنه كاتب. رجل مهذب.. والمهذبون يكونون خوافين، فيتخلى عن البنت.»

أجابه صادق العين الزجاجية قائلاً: «هذه القضية لا تجدي.. فالولد ليس من أولئك الخوافين. وعينه محمرة كثيراً.»

«مثل ماذا؟»

«لا يوجد كاتب في المحاسبة لم يلكمه!»

«لماذا تعتبرنا مثل الكتاب الآخرين؟ وهل نحن مثل أولئك الكتاب الذين يلكمهم؟»

قال صادق العين الزجاجية: «لسنا مثلهم. طز حتى ولو كان هناك اثنان مثله. بهذا نستثير الولد على الآخر، وإذا كان لا يحبها، فسيحبها. ها هي ابنتنا قادمة!»

«أين هي؟»

أشار بإصبعه إلى البنت السمراء التي ظهرت عند زاوية البيوت المقابلة: «ها هي. انحن نحوي.»

«رأيتها..»

«هل نناديها؟»

«هل تأتي؟»

«كيف لا تأتي إذا ناديتها أنا؟ إنها ابنة خالي..»

قفز صادق العين الزجاجية. وجاء مع البنت إلى المحل.

قالت البنت السمراء: «أوه.. خليل آغا أيضاً هنا. وقد وضعتم السفرة...»

قدما لها كرسياً.. جاءت البنت إلى الطاولة، وجلست.

وبعد السلام، والصباح، وأهلاً وسهلاً، قال الجمال خليل الأنكش: «إيه، ما هي الأوضاع؟»

«سلامتك والله يا أخي.»

«هل متعتك على ما يرام؟»

قالت: «إيه.. نتمنى رؤيتك.. قلت لنفسي لأشتري فرشاة سلك من هنا. سأمسح الخشب!» ثم أضافت قائلة: «اليوم عمل الآغا عملاً بكاتبك، لا يحكى!.. لا يبتلع حتى مع العسل. معلم المغزل عندنا مسحوق، ضغط على مكان وجعه، فرمى السهم في الهدف!»

«ماذا حدث؟»

«...كان الآغا يجول على المغازل، وكان يتكلم في ذلك الوقت مع جميلة. ثم أما دخل الكاتب إلى المغزل فجأة؟.. همس معلمنا الكافر شيئاً ما بأذن الآغا. رمق الآغا الكاتبَ بنظرة، شحب لون الولد.. يعني لو أطلقوا النار عليه، لما سال نقطة دم بهذا القد منه!»

قال صادق العين الزجاجية: «ماذا قال؟»

«قال له: ماذا تفعل أنت هنا يا كاتب؟»

«ماذا رد عليه؟»

«تلعثم.. وقال له الآغا، يا الله من هنا، لن أراك هنا مرة أخرى!»

نادى الجمال خليل الأنكش لبائع الكباب قائلاً: «انظر إلينا يا ابن أختي! انظر، ها هي أختنا جاءت! هات كأساً نظيفاً، وسيخ كباب أو غيره..»

قالت البنت السمراء: «سامحني يا خليل آغا.»

«لماذا يا أختنا؟»

«سأذهب إلى البيت يا أخي، سأمسح خشب الأرض.»

قال الجمال خليل الأنكش: «أنت ضعيفة جداً يا أختي! اقلبي كأساً أو كأسين، ثم اذهبي.. إنه دم بكل معنى الكلمة!»

«طبعي سيئ. إذا مس فمي فلن أستطيع التوقف... أصلاً أنا أشتهي كثيراً.»

نادى بائع الكباب: «إلى متى يا هذا؟.. ماذا جرى لك يا ابن أخي.. سيكون كباب أختنا على أصوله، بالفلفل، والسماق وغيره.. أنت تعرف!»

هز بائع الكباب رأسه وهو يضحك خلف بسطته.

سأل الجمال خليل الأنكش: «وبعد ذلك؟»

قالت الفتاة السمراء: «حكيت لها عن كل ما قلته لي. وقلت لها إنه يريد تأسيس عائلة على سنة الله ورسوله..»

«وهل قلت لها إنه سيعقد عليك عقد زواج حكومي؟»

«قلت.»

«وأنني سأملأ ذراعيها بالأساور المبرومة؟»

«قلت لها هذا أيضاً. وقلت لها سيؤمن لك داراً في المدينة؟ وسيجعلك سيدة في زاويتك.»

قال صادق العين الزجاجية: «ابنة خالتي تقول هذا!»

«ماذا قالت؟»

«غضبت..»

«حقيقة؟ يعني غضبت.. إنها محروقة بالكاتب يا سيدي.. عقلي يقول لي: اسحب مسدسك، وطاخ، طاخ، طاخ..»

تدخل صادق العين الزجاجية بالكلام قائلاً: «ما ذنب الكاتب؟.. أساس القضية عند البنت.. إذا لم يكن عند البنت رغبة، فالكاتب يبقى بعيداً.. هؤلاء مهاجرون يا ابني.. إذا دخل شيء في عقولهم، غير الله لا يغيره!»

وصل كأس البنت السمراء. ملأه الجمال خليل الأنكش بالنبيذ.. وبعد أن رفعوا الكؤوس جميعاً، وقرعوها، شربوا.

استمر صادق العين الزجاجية بالكلام: «أنت تعرف يا خليل، لولا قضيتك هذه، كنت جعلتهم يعافون ربهم، ولكنك أنت تكسر ظهري! وإلا.. هناك أخوها صدري.. كانت نيتي اليوم أن أنفضه جيداً.. مثلاً، خالي هذا.. معلم صالة نسيج هذا القد قدها.. هل يؤخذ ويعطى بالكلام معه؟ طلبني خالي إلى غرفته، فذهبت.. قلت أمرك يا خالي! قال كذا وكذا، صدري رجلك هذا، قال قول الإزميري. طار صوابي، وقلت أمرك يا خالي، أنا من أجلك.. إنه خالي يا هذا!.. وهل هناك أكثر من هذا؟ إنه أخو أمي الكبير. إنه خال، ماذا يعني الخال؟»

أمسك الكأس. وتناول الآخران كأسيهما.. وقُرعت مرة أخرى، وشُربت.

ألقى صادق العين الزجاجية قطعة لحم كبيرة في فمه، وتابع كلامه قائلاً: «أنت تكسر ظهري يا أخي! ليعرقل عملك، وسترى. لن أشفق على هؤلاء... ستذبحه من رقبته بسكين مثلمة!»

بدأ خدا البنت السمراء الشاحبين السمراوين بالاحمرار، وقالت: «وأخته تلك أخت. تلك الأخت، أسوأ من أخيها بكثير. لو رأيتها عندما طرد الآغا الكاتب، أطرقت برأسها إلى ركبتيها. ووخزت حتى بحق الآغا ياه!»

قال الجمال خليل الأنكش: «لا، ياه!»

«نعم.. لو رأيتها وهي تخز الآغا بالكلام..»

قال صادق العين الزجاجية: «هؤلاء هكذا! هؤلاء لا تنفع معهم الرحمة! اعمل ما ستعمله أنت، ولينجز شغلك هذا، وبعدها أعرف ما سأعمله!»

جاء كباب الفتاة السمراء ساخناً، ينبعث منه البخار. انتشرت في الجو رائحة نعناع وشواء ناضج نفوذ.

امتلأت الأقداح مرة أخرى، ورفعت الأنخاب، وشُربت.

أخرج الجمال خليل الأنكش قطعة عشر ليرات صحيحة، ونادى: «يا بن أخي!»

جاء بائع الكباب راكضاً.

قال له: «ابعث من يجلب لنا زجاجتي نبيذ أحمر!»

«أمرك يا عيني...»

قالت البنت السمراء: «مفهوم، ستجعلونني أزمر، وأقع من طولي من الشرب.»

قالا: «تسلم روحك يا أختي.»

«تسلم روحكما أيضاً. ليكسر مقبض الملعقة التي ترتد قبل أن تصل إلى الأرز!»

داعب صادق العين الذهبية ظهر البنت السمراء: «أنا لا أقول هذا لأنها ابنة خالي، ولكن لا يوجد مثلها في المصنع! أما ما جعلني أقول هذا...»

أجابت البنت السمراء: «دخلكم، وهل بقي خير في أختكم؟ لو تروننني قبل أربع أو خمس سنوات!»

قال الجمال خليل الأنكش: «وما بك؟ مازلت مليحة!»

نظر إلى الفتاة برغبة.

«كان لدي شعر، يصل إلى كعبي! أين هو الآن؟ وهل يترك هذا المصنع إنسانية في الإنسان؟..»

جلب الأجير الزجاجات الجديدة. فتحوا واحدة، ووزعوها على الكؤوس.

قالت البنت السمراء: «نحن نسرع يا شباب!»

لم يبال الجمال خليل الأنكش.

«كادت يدي أن تعمل حادثاً صباحاً...»

«ماذا جرى؟.. خير إن شاء الله؟»

قال الجمال خليل الأنكش وهو ممسك بكأسه: «لنشرب رشفة أولاً.»

شربوا.

«... هناك كاتب القطن المحبوب ياه.. اعتبرناه رجلاً، ودخلنا إلى غرفته. وجلسنا بضع دقائق. وأشعلنا سيجارة أيضاً. علق على أطفئ سيجارتك، التدخين ممنوع هنا... قالها مرة، مرتين.. خمس مرات.. قلت له: يا صديقي، ممكن أن يكون ممنوعاً على الجميع، ولكنني مميز في هذا المصنع. فالآغا يحبني أكثر من ابنه! لا.. هذا المكان مصنع، والآغا لا يجامل حتى أباه في هذا

الموضوع. طار صوابي. قلت له، ولاه، نبيك، وعيساك، وموساك، وسينك وكافك... رشقته بحضن شتائم. قرعة أبيه لا تُعرف من أين، كيف يحسبونه علينا من الرجال؟.. الأمر ليس كذلك، إنه يكذب عن لسان الرأس الأكبر. ادعى أن الآغا قال له ليطفئ السيجارة. قلت له: هل قال هذا؟ قال: نعم.. ذهبت إلى الآغا، وقلت له: يا آغا، هل أنت أمرت كاتبك بكذا، وكذا؟.. قال: لا والله يا خليل! الله يجعل دمي يسيل كالماء إذا لم يكن كذباً.. أخوك الكبير هو أخي الأصغر، أما أنت فأغلى من ولدي الذي من ظهري.»

بعد أن رشف من نبيذه، تابع القول: «أشعل الثقاب، وأحرق المصنع! أعرف يا سيدي أنك لا تقول هذا. أنت تحبني أكثر من ابنك، ولا يشرب إلا مع أخي.. قلت له، مهما يكن، طالما الأمر هكذا، اطلب كاتبك! طلبه فوراً طبعاً. قال له، وهل أنا أعطيتك أمراً كذا، وكذا؟.. تلعثم الكاتب، وتأتأ وفأفأ... انزعج الآغا، وأنبه. وقال: هناك رجل، وهناك شبه رجل، وكل شخص لا يؤكل لحمه! أنا أحب هذا أكثر من ابني، وإذا سألت عن أخيه الكبير، فهو أخي الصغير. هذان يشعلان عود الثقاب، ويحرقان المعمل إذا أرادا. ولم يترك له ستراً لم يهتكه. لولا أنني خلصته من بين يديه، لَلَعن أنفاسه. دخلت بينهما، وأنهينا القضية. ولاه، اضربه على مخه. ليس كل رجل يؤكل لحمه، هذا الرجل يحبه الآغا أكثر من ابنه الذي من صلبه. هه؟ وأخوه الأكبر صديق صاحب المصنع، وهو أكثر من أخيه الأصغر. هه؟»

كانت أصوات مضغ الأفواه مستمرة. في إحدى الأثناء، قال الجمال خليل الأنكش: «يخطر ببالي أمر آخر! لنفكر به، ونحسبه..»

قال صادق العين الزجاجية: «مثل ماذا؟»

«لتقلع هذه البنت ضرسها، وترميه نهائياً.»

«إيه؟»

«سلامتك. نأتي بسيارة ذات يوم، ونلقيها في السيارة...»

تبادل صادق العين الزجاجية النظر مع البنت السمراء.

قالت البنت السمراء: «هذا أنظف شغل! ولكن عمرها مازال صغيراً.»

«كم؟»

«أربعة عشر أو خمسة عشر.»

قال الجمال خليل الأنكش: «ليكن، أنام في السجن من أجلها أيضاً. وأذهب إلى المشنقة! هيا، بصحتكم!»

شربوا.

«من ناحية النقود، فكما الرمل في البحر، لدينا نقود.»

«يلزمنا سائق مربوط اللسان...»

«موجود. وهذا أيضاً موجود.

«ماذا يوجد إذا كان الأمر هكذا؟ بعد أن تفتح فم كيسك، وتجد سائق مغلق الفم...»

دخل عمر الأرناؤوطي إلى الدكان. تلفت فيما حوله، فرآهم. وكانوا قد رأوه.

قال الجمال خليل الأنكش: «تفضل يا صديقي! تعال إلى هنا!»

بعد تردد بسيط، تناول كرسياً، وجلس.

«مرحباً!»

«مرحباً، مرحبا، مرحباً... مرحباً جميعاً.»

«ماذا هناك؟»

قال عمر الأرناؤوطي: «لا شيء، سلامتكم. كنت أريد أن أكلمك يا صادق.»

«أأمر يا أخي، متى تريد...»

«فيما بعد، بعد أن نخرج من هنا...»

«ممكن يا أخي، متى تريد..»

قالت الفتاة السمراء: «يبدو أنك متضايق يا عمر آغا؟»

«لا تسألي يا أختي... لو نقروني على أنفي لخرجت روحي.»

نادى الجمال خليل الأنكش بائع الكباب: «يا ابن أختي.. هات قدحاً نظيفاً، وواحداً كباب لصديقنا!»

كان بائع الكباب قد بدأ ينقر بسكينه الضخمة العريضة على الدف فرحاً.

13

كانت جميلة تسكن في صحن بيت موسى النساج.

البيت الذي يحمل الرقم 368 مسجل في دائرة المساحة والسجل العقاري بيت صغير، وهو آيل إلى السقوط مثل بقية بيوت الحي. لشربه المطر، وجفافه تحت الشمس، وتشققه، وتلقيه العواصف بصدره، فقد مال إلى الأمام، وتفسخت أخشابه كلها.

إحدى الغرفتين المتجاورتين في الطابق العلوي، والواقعة إلى اليمين يسكنها موسى النساج وزوجته وأولاده الأربعة. والواقعة على اليسار يسكنها أبوه وأمه وجدته «الخالة البيضاء» البالغة الخامسة والتسعين من عمرها. الجدار الذي يفصل بين الغرفتين، مهترئ ومثقب، ولأن قرميد السقف صدئ ومكسر أو متشقق فإنه يدلف من عدة أمكنة، وتغدو الفرش التي لا تجمع أبداً كأنها مبللة تماماً.

في إحدى الغرف السفلية، يسكن المعلم عزت، وفي أخرى تسكن أسرة جميلة بإيجار شهري يبلغ ليرتين ونصف. وأجرت بقية الغرف المحيطة

بصحن البيت لعمال المصنع مقابل أجرة شهرية تبلغ ليرة ونصف أو ليرتين. وهذا الصحن الذي يؤوي ثلاثين إلى أربعين بيتاً يُسمى «صحن موسى».

دفعت جميلة باب الغرفة، ودخلت، فوجدت والدها جالساً متربعاً، وهو يشحذ موسى الحلاقة على حجر المسن.

«يعطيك العافية يا بابا!»

نظر مالك المسن من فوق إطار نظارته ذات الإطار الأبيض إلى ابنته، ثم أدار عينيه نحو الساعة المنبهة الصاخبة الموضوعة على الرف.

فهمت جميلة قصد أبيها، فقالت: «كان لدي شغل! ذهبنا إلى الإدارة. مع حليمة.. كانت الخيوط تتقطع إلى حد أنها دوختنا. لا نستطيع أن ننجز عملاً أبداً. خربت أعمالنا تماماً منذ أتى هذا الإيطالي. سنحترق إذا استمر الوضع هكذا.»

سأل مالك المسن وهو منهمك بسن موساه دون أن يرفع عينيه عن عمله بالبوسنية: «أما كان هناك غيرك ليذهب إلى الإدارة؟»

قالت جميلة: «لم يكن! أصر رفاقي على خروجي أنا.»

«أين أخوك؟»

قطبت جميلة حاجبيها. ورمت غطاء رأسها على درابزين الدرج بعصبية.

«ها؟.. أين أخوك؟»

«من أين سأعرف أنا؟»

«كيف لا تعرفين؟»

«لست وكيلته!»

نظر مالك المسن إلى ابنته مطولاً، ولم يسألها سؤالاً آخر.

تابعت جميلة بعد فترة طويلة: «قلت له ألف مرة، لا تتكلم معي في الشارع عندما أكون مع رفيقاتي. إنه يتكلم معي لمجرد أن يعاندني. يضع يديه وراء ظهره، ويقطب حاجبيه، فتعتقد أنه سيفتح العالم! أين كنتم؟ مضى على خروج الجميع دهراً... كأن هناك من يعتبره بين الناس. غضبت منه، قلت له، ما علاقتك أنت، ومشيت. لم يكن يعمل عنتريات كهذه، ولكن معلمه بهذه الأفكار كان معه!»

«من هو؟»

«موسى السافل.»

«يعني وضع يديه وراء ظهره.»

«والله وضعها... قلت له ما علاقتك أنت، ومشيت. ولكنه غضب...»

ضحك الأب طويلاً فاتحاً فمه الخالي من الأسنان، ثم قال: «لا تكسري خاطر ابني!»

«ولماذا يعمل هذا لمجرد أن يعاندني؟»

«إنه أكبر منك. لن أتدخل إذا كسرت خاطره! سنتبادل الأدوار.»

«لئلا يعمل شيئاً لمعاندتي، فلا أكسر خاطره. لماذا يضغط على العصب الذي يجنّني؟ هل أنا طفلة؟»

نظر المسن إلى ابنته معبراً عن قطيعته لها، ثم هز برأسه بشكل خفيف. هرعت جميلة وصعدت الدرج راكضة. وذهبت إلى أبيها، وجلست على ركبته ذات العظام الغليظة، وعانقته من رقبته.

قال مالك المسن: «لا يمكنك أن تكسري خاطر ابني، فله مكان فوق رأسي! لا يمكنك أن تكسري خاطره.. فهل لك غيره، وله غيرك في هذه الدنيا؟ إذا أغمضت عيني على الدنيا غداً..»

لفت جميلة رقبة أبيها بقوة أشد، وبدأت تقبل وجهه ذا اللحية القصيرة القاسية الجافة، وقالت: «يا أبي، يا أبي الحلو.. لمن ستترك ابنتك؟ ستبكي ابنتك كثيراً بعد هذا!»

«إيه.. لمن تركنا آباؤنا وأمهاتنا.. لم تنشق الأرض، وتخرجني. فأنا كان لي أب وأم وجد وعمّات وخالات... أين هم؟» وتنهد، ثم أضاف: «صاروا كلهم تراباً. هذه دنيا فانية. كان يا ما كان!»

كان يداعب شعرها.

«كل شيء كذب، وكل شيء حلم. نحن كنا ثمانية أخوة. هناك أنا والذي في قرة غول، وأين الستة الباقون؟ لهذا ينبغي أن يحافظ كل منكما على الآخر. ولا يجرح أحدكما قلب الآخر، ولا يقل أحدكما كلمة قاسية للآخر، وليحب أحدكما الآخر! سيأتي يوم يصير عندكم فيه أطفال، وستجلسونهم على ركبكم..»

«أرجوك يا أبتي!»

«.. وتحنون عليهم...»

لمعت عينا مالك الهرم: «عندما نذهب إلى قريتنا، أوه! سأغلق بابي على العالم. وسيتخلص أولادي من مساوئ الكلاب. حينئذ نامي بقدر ما تشائين يا جميلتي! لن أتدخل أبداً. حتى الظهر إن شئت... ولكن لا يجوز نسيان حليب البقرات!»

أمسك ابنته من طرفي كتفيها بقوة، وقال: «أنت ستحلبين البقرات يا جميلتي، وستطبخين لنا طعامنا. وسنحرث الأرض أنا وأخوك. وسنزرع البطاطس والقمح والحمص، وسنجمع محصولنا.. شغلك سهل، هو حليب البقرات، وطبخ الطعام، وطلاء الجدران بطين روث الحيوانات.»

«الجلي، والغسيل، ومسح الأرض.. لماذا نسيت هذا؟»

لمعت عينا المسن أكثر: «.. بماذا أفكر غير هذا يا جميلة، هل تعرفين؟ أن أعطيك لابن حلال، يصلي أوقاته الخمسة...»

«بابا!»

«ليكن فقيراً، فالفقر ليس عيباً. يكفي أن يكون صهري شريفاً.»

«أنا قاطعتك يا أبي!»

«.. وإذا وجدت لابني فتاة ابنة حلال، وشريفة.. إيه، لن يبقى شيء.. بعد ذلك، أنتظر أحفادي. لو أسحبهم من أيديهم، وآخذهم إلى المقهى. وإذا سألوني في المقهى: من هؤلاء؟ فأنفخ صدري مباهياً، وأقول: أحفادي! وإذا تسلقوا على كتفي، ونزعوا نظارتي عن عيني، وألقوها على الأرض.. وإذا كسر أحدهم نظارتي، أقول له: ستكون جنياً أنت! مع أنك كنت أكثر شغباً منهم. كانت أمك تعجن العجين، فتدسين أنفك باستمرار، وتلكزك أمك بأسطوانة الرّق. ذات مرة، رميت سلة من البيض، وكسرتها واحدة تلو أخرى.. وسال البيض من ثقوب السرير أصفرَ.. ولا أسمح لك بضرب أحفادي، قائلاً كنت أكثر منهم شغباً، وأذًى.»

«يكفي يا بابا، آه يا بابا!»

«.. وليعبثوا بأدواتي إن أرادوا.. وليخلطوا حب دوائي إن أرداوا...»

«.....»

«... أنا لا أغضب منهم أبداً!»

قبل شعر ابنته، وأضاف: «وماذا أريد أيضاً هل تعرفين؟ عندما يصير الثلج بطول رجل في الخارج، وتهب العاصفة، وتهاجم قطعان الذئاب... نجتمع بضعة مسنين حول الموقد، ونضع غلايات القهوة، وننفث دخان السجائر، ونتحدث عن الأيام الماضية!»

فتحت يديها، وقالت: «أرجوك يا ربي.. أنت أعلم!»

شردت عيناه. كان يدع نفسه للانجراف في تلك الخيالات كثيراً في الأيام الأخيرة، ولا يُسقط عن لسانه اسم قرة غول التي تقع فيها الأرض البالغة خمسة عشر دونماً، ومنحته إياها الدولة في الأيام الأولى لمجيئه إلى تركيا، وأسكنته فيها.

لم تنهض جميلة لكي لا تشتت خيالات أبيها، وحتى لم تكن تتحرك. مع أنه ما أكثر أعمالها اليوم!

تابع المسن مالك قائلاً: «وأريد أن أدفن بجوار زوجتي العزيزة أيضاً. سأحفر قبري، وأجهزه بيدي. مفهوم يا جميلة؟ ستدفنونني بجانب زوجتي، أليس كذلك؟»

نهضت جميلة عن ركبة أبيها، وقالت محتدة: «هل تريد أن تبكيني مرة أخرى؟ قبر وموت، ما هذا؟ اللعنة على القبر والموت!»

انكب مالك العجوز على عمله عائداً إلى شحذ سكينه.

فتحت جميلة خرقة السفرة المرقعة والنظيفة جداً. ووضعت فوقها دفة رق العجين المدورة، وجلبت ماءً في جرة. قطعت الخبز. نزلت بعد ذلك، وتناولت قدر الطعام الكبير الملتاث بالشحار، وعادت. رفعت الغطاء. انتشرت في الغرفة رائحة حساء البصل الحارة.

قالت جميلة: «أوه يا بابا! تسلم يداك. رائحة زكية. لو يأتي هذا الصبي الكبير، ونبدأ بالأكل!»

فجأة خطر ببالها أمر آخر، فنهضت. نزلت الدرج راكضة. ووضعت ماء على الموقد من أجل الجلي، وأشعلت تحته.

نادت: «بابا.. ستغتسلون اليوم أنت وأخي. لا تتركه ينام ها.. ليغير ثيابه.»

«وأنت؟»

«أنا أيضاً سأغتسل، ولكن بعد الغسيل.»

في تلك الأثناء سُمع من باب صحن الدار قهقهة حادة. كانت أخت المعلم عزت غوللو المُنضِّدة، اقتربت منها، وقالت لها: «جماعتك عند بائع الكباب، منـزوون، ويتحدثون.»

قالت جميلة: «احك بهدوء.. جماعتي من؟»

«الجمّال، البنت السمراء، العين الزجاجية...»

«والبنت السمراء أيضاً؟ اللعنة عليها. ألا تخجل...»

«هل ستغسلين؟..»

«نعم يا أختي... عندي شغل قد الدنيا اليوم. سنغتسل، ونغسل الغسيل.»

«تأخرت.»

«ماذا أفعل، خرجنا متأخرين من المصنع..»

ضحكت غوللو، وقالت: «قليلة الأدب. هل أخبر أباك؟»

لفت جميلة عنق غوللو، وأغرقت خديها المكتنـزين وقليلي النمش بالقبل.

قالت الأخرى: «كفى، كفى.. تلزم هذه للكاتب أيضاً!»

«تفوه، امرأة قليلة الأدب!»

«ماذا يقول عن طرده من صالة الغزل؟»

«لا شيء. ذهب إلى السيد نعمان، وحكى له، فزاد له راتبه عشر ليرات.»

«شاطر، قولي إن عينه مفتحة. متى سيرسل جدته؟»

«لا أعرف يا أختي.. يريد أن يرسلها فوراً.. ولكنني لست متأكدة من أبي.. مقطوعة مرارتي من الرعب خشية أن يطردها أبي. إنه يلح على قرة غول...»

«الله يلعن قرة غول! الجميع يهربون من قرة غول إلى تشيكوروفا... شغل هذا الرجل كله بالعكس يا جميلة... ليس عنده عقل أبداً.. يقدم الدواء، دون نقود، يحلق الشعر دون نقود، يحلق اللحى دون نقود...»

«وهو منكب الآن على شحذ الموسى!»

«ليس عنده عقل يا أختي، أستغفر الله، لا يوجد.. يا بنت، لأفتح موضوع الكاتب لأبيك إذا أردت؟»

«والله لا أعرف يا غوللو... افتحي الموضوع لأخيك الكبير إذا أردت، وهو يفتحه لأبي.. أبي لا يرد طلباً للأخ الكبير عزت..»

«ممكن سأفتح الموضوع لأخي...»

«إلى أين أنت ذاهبة الآن؟»

«لا شيء، إلى بيت أخي الكبير. زوجة أخي مريضة أيضاً. مرضها مميت، ولكنها لا تموت. تسعل، وتخرج قطعاً، ويخرج الدم من فمها. لا تذهب إلى المستوصف.. ماذا؟ يعطونها هواء. امرأة هذا القد قدها، وتخاف. لا نطلب منها شيئاً، نقول لها اتركي المصنع. لا تتركه. ستموت وراء الآلة. كل شخص عنده نوع من الجنون يا أختي. وأنظر، فأجد أن شيئاً ما في رأس كل شخص يختلف عن الآخر...» وسارت نحو الغرفة المجاورة لغرفة بيت جميلة.

وبعد أن أوقدت جميلة الموقد، سارت نحو الغرفة. كان والدها يشحذ الموسى حتى تلك اللحظة...

«أين تأخر أخي الكبير هذا يا أبي؟»

لم يجب مالك المسن. نزع نظارته، ووضعها في بيتها. مسح موساه، وجفف حجر المسن، وبينما كان يضعها في حقيبتها، دخل صدري بوجهه المكتئب.

قالت جميلة لأبيها وهي تغمز بعينها: «واه! انظروا إلى التباهي الظاهر عند الصبي الكبير!» وكانت قبضتيها على خصرها.

لم يجب صدري، ولم ينظر أيضاً. جلس على الدرجة السفلية من السلم. وبدأ يفك ربطات بوطه.

تابعت جميلة: «إذا قطب حاجبيه، ووضع يديه وراء ظهره، أف.. سيفتح العالم!»

غمزت مرة أخرى لأبيها: «.. كأن هناك من يخاف منه. ولد جربان، من يعطيك أهمية؟»

نهض صدري فجأة بعد أن فك ربطات بوطه، وقال: «وأين توجد أخت قليلة الشرف مثلك، الله يبعث لك ألف بلاء!»

«يبعث لك أنت.. ما هذا الكلام؟»

«الله يبعث لك ما تستحقين بعد الآن.»

مدت جميلة لسانها.

«مديه، مديه.. مدي لسانك.. الله يبعث البلاء لمن يقترب منك بعد الآن ليس لمن ينتظرك، حتى لمن يقترب منك لو كانوا يمسكونك من ذراعك، ويجرونك!»

قالت جميلة: «أنت تشفق على أختك، ألا أعرفك أنا؟ قلبك رقيق أنت...»

«رقيق.. نعم، تقول إنه رقيق!.. سترين أنت بعد الآن..»

قالت جميلة وقد توترت فجأة: «أرجوك، والله أنا ليس عندي مسايرة لأحد يا أخي! ومن هذا الذي سيمسكني من ذراعي، ويجرني؟ أنا أشج رأس الرجل! قال سيجروننني من ذراعي.. كأن المكان هنا فوضى، وهو رأس جبل.. إذا لم يقبل الإنسان بشيء، فلا أحد يستطيع أن يعمله له...»

«أنت افهمي هذا. ليس كل شخص صدري.»

«ليجروني، وأرى...»

«إيه، لا يعرف هذا...»

عندما خلع بوطه، فاحت في الغرفة رائحة قدمين قذرة.

قالت جميلة: «دخلك يا أخي، أرجوك.. اذهب، واغسل قدميك القذرين!»

كان صدري قد صعد نصف السلم. لم يعترض أبداً. نزل كطفل كبير مطيع، وذهب ليغسل قدميه.

«الصبي الكبير غضب إلى آخر حد يا بابا!»

كرر أبوها: «لا تجرحي شعور ابني! إذا جرحت شعور ابني، فلن أرضى عليك!»

قال صدري بعد أن غسل قدميه وعاد: «ولاه، يا قليلة الشرف، إذا كنت أنتظرك، فهل أنتظرك لسوء؟ من لك غيري، ومن لي غيرك في هذه الدنيا؟»

عانقت جميلة أخاها، وقالت: «يا روحي يا أخي، يا أخي الكبير الحلو!»

دفعها صدري، وقال: «يا الله، يا الله.. تقول روحي أخي... أنا لست روحك، أنا أكبر أعدائك.»

قبلت جميلة أخاها بالقوة: «ولاه، أنت تعرف طبعي... هل يمكن أن أؤخذ بالصخب؟»

«من رفع صوته عليك؟» والتفت إلى أبيه: «انتظرناها واقفين على قدمينا ساعة.. وكانت معها حليمة تلك. خرجتا بعد فترة طويلة.» نظر إلى أخته: «يا هذه، رأيت أن هذا أخوك، فهو ليس رأس حمار! الإنسان يلتفت، وينظر. فهل هذا الذي عملته أمام موسى كان صحيحاً؟ الرجل أصلاً كثير الكلام.» ثم لأبيه: «تعرفه، زعيم الساخرين! اتخذ موقفاً، وبدأ ينق. الرجل استهان بنا،

ومضى..» ولأخته: «يا لبوتي، غدا يكسر ابن الناس غرورك! ليس كل الناس مثل صدري!»

«سأضرب رأسك بما يقع تحت يدي ها! قليل تربية. دع ابن الناس جانباً!»

كرر أبوهما الذي يضحك بصمت: «لا يجرح أحدكما الآخر يا أولاد، ولا يكسر خاطره!»

«لماذا يقول كلمات غير مهذبة؟»

«ماذا قلت؟ قلت يكسر ابن الناس غرورك.»

«تقول هذا طبعاً!»

«ليقف في معدتك!»

«والباقي في حضنك!»

قال صدري: «كلبة، كلبة.. انظروا إليها، كلبة تماماً!»

«نعم، أنا كلبة.. أنا لا أؤخذ بالصراخ.. عندما يُصرخ عليّ فإن عرق الكلب عندي ينط! عليك أن تعرف هذا، وتحسب حسابه..»

أطلق الأب والابن قهقهة. ضحكت جميلة أيضاً. لم تبق هناك مشكلة.

جلسوا إلى المائدة. قدما قلب الخبز لأبيهما، وبقي الجزء الخارجي لهما. كان الرجل المسن يجد صعوبة بمضغ اللقم القاسية.

تعالت في الغرفة أصوات مضغ طعام بشهية. وبينما كان يلقي صدري لقمة كبيرة في فمه، نقط الطعام على ثيابه. رأته جميلة: «كل بشكل مهذب ولاه!»

«ما هذا؟ هل بدأت من جديد؟»

طبعاً أبدأ. إنك تنقط فوقك. كل بتهذيب!»

«أين؟»

«ها هي، هل أنت أعمى؟»

نظر صدري، وضحك، ثم قال: «تسلم لي أختي، فهي تغسله.»

«نعم تغسله. لأنها أمة أبيك. أنا التي تُلعن أنفاسي وراء الآلة كل يوم. ثم...»

في تلك الأثناء نقر السقف من الأعلى. سمع صوت موسى النساج: «ما هذا يا غر؟ هل تصالحت معها، أم ماذا؟»

قالت جميلة وهي تغطي ركبتيها بثوبها المفتوح من الأمام: «لن نرتاح أبداً من هذا الرجل!»

قال صدري: «ماذا أفعل يا أختي، فيه شعرة من الشيطان!»

«عيب، عيب.. وهل يلعق الإنسان البصقة التي بصقها؟»

قطب مالك المسن حاجبيه فجأة، وغضب وجهه، وصرخ باللغة البوسنية: «ماذا يفعل؟ هل يسحب مسدساً، ويطلق عليها؟»

سُمع صوت أبي موسى الأجش: «موسى!»

بعد عدة لقم، ابتعد الرجل المسن عن المائدة. لم يكن مشتهياً كثيراً أصلاً. أسند ظهره إلى الجدار. وبدأ يتفرج على التهام ولديه الطعام مثل الذئاب. ذات لحظة، رأى الأخوان معاً قطعة لحم كبيرة في الصحن، فانقضا عليها في اللحظة ذاتها. كل منهما أمسكها من طرف.

«اترك!»

«اتركي أنتِ!»

«أنت يجب أن تترك!»

«لماذا؟ أنت يجب أن تتركي!»

«أنا رأيتها قبلك، اتركها!..»

«واه، يقول رآها قبلي.. أنا رأيتها قبلك!»

«.....»

«.....»

قالت جميلة وهي تنهض على ركبتيها: «أقول لك اتركها ولاه.. اتركها!»

ضحك الرجل المسن بشكل جعل الدمع يسيل من عينيه.

انقطعت قطعة اللحم في النهاية. نزلت جميلة على مؤخرتها. القطعة الأكبر ذهبت إلى صدري، فألقاها في فمه.

قالت جميلة: «قليل تربية! لتأكل الهم، مليح!»

لم يبال صدري.

14

غسل صدري يديه وفمه بالصابون بعد الأكل، وشرب طاساً كبيراً من الماء، ودخل الفراش الممدود دائماً أمام النافذة وتفوح منه رائحة النشاء. وحضر نفسه للنوم.

قالت جميلة: «أرجوك يا أخي، دخيل عينك لا تنم. غيِّر ثيابك الداخلية، ثم...»

وأخرجت صرة صدري من الصندوق، وأعطت أخاها ألبسة داخلية نظيفة.

نهض صدري بلا رغبة. ومرة أخرى تأجج صداعه. كانت قد ثقلت أجفانه، ونبض صدغاه. وبعد أن خلع التي عليه، وارتدى النظيفة، حاول

النوم، فقالت له جميلة: «ماذا عن الدرس؟.. والله الأخ عزت سيوقظك، وأنا لن أتدخل!»

«رأسي تؤلمني.»

«لا أدري، يوقظك. وأنا سأوقظك أصلاً، لكي تغتسل!»

نخر صدري، وتقلب يميناً ويساراً تحت اللحاف، ثم بقي دون حركة.

رفعت جميلة السفرة. أنزلت ماء الغسيل في طرف صحن الدار الذي يلعب فيه أولاد موسى «بالحاح»، وبعد ذلك صعدت إلى الأعلى لكي تستعير طست الغسيل من بيت موسى.

كانت غرفة موسى مبعثرة كما هي دائماً.. صدارات مفتوحة سقطت عن مساميرها، وفرش مكومة إحداها فوق الأخرى... ورائحة البول تخيم فيها.

زهيدة زوجة موسى امرأة قصيرة، معوجة الساقين، وبطنها يصل إلى حلقها.. وجميلة لا تتذكر هذه المرأة إلا وبطنها إلى حلقها. كانت جالسة على عتبة الباب، وتخيط قميص زوجها بخيط قطني أسود. كان شعرها، وهندامها مبعثراً جداً. ثدياها الظاهران من فتحة ثوبها فرغا، وانكمشا متهدلين..

أما موسى المدور الوجه تماماً على عكس زوجته، فقد تجاوز الثلاثين. وقد تمدد في فراشه شبه عار. ولم يجد ضرورة للملمة نفسه عندما ظهرت جميلة بالباب.

حين انكمشت جميلة، قال: «لا ضرر، لا ضرر.. فنحن لسنا غرباء!» ثم أضاف: «أحسنت! أحسنت يا جميلة! الخيل لك، والخيال أيضاً..»

«لماذا؟»

«كسرت شوكة الصبي تماماً!»

قلبت جميلة شفتيها، وقالت: «هو لا يؤاخذني.»

نظرت زوجة موسى منحنية من الضعف، وقالت: «والله.. أليسا أخوين؟»

«نحن لم نقل شيئاً أصلاً... ولكن إذا احتدت أختي بوجهي هكذا...»

التفتت جميلة بحدة: «ماذا كنت تفعل؟»

«ماذا أفعل؟.. أدوس على ساقها، و..»

قالت جميلة: «هيا يا أخت زهيدة! تخيطين فيما بعد. أعطني هذا المرجل!»

تركت زهيدة قميص زوجها على العتبة، وذهبت نحو القضبان الحديدية المطلة على الموزع. المرجل هناك. وفيه بعض الخرق والألبسة الداخلية الرطبة. قلبت المرجل على مرجل نحاسي بيديها النافرة عروقهما الزرقاء.

«خذي.. صبي عليه ماء...»

بدأتا تتهامسان وهما واقفتان.

قالت المرأة: «اكتملت أيامي، سألد اليوم أو غداً.. ليس لي غيرك أثق به يا أختي...»

قفزت المرأة بشكل بشع، فسألتها جميلة التي ترنو إلى بطنها المملوءة: «هل لديك مخاض؟..»

«ليس لدي، ولكنه سيبدأ قريباً من كل بد.»

«عندما يكتمل وقتك، ناديني.. اقرعي السقف، فآتي. لو كنت أعرف اليوم والساعة، لماذا ذهبت إلى العمل أيضاً..»

«الله يرضى عليك يا أختي.. لن أنسى جميلك هذا أبداً.»

«الإنسان ضروري للإنسان.»

«أنا خائفة هذه المرة يا جميلة!»

«لماذا؟»

«رأيت حلماً!»

«ماذا رأيت؟»

«لا تخبري أحداً، أليس كذلك؟»

«ألا تعرفين طبعي يا أخت زهيدة؟»

«بكى في حلمي، وفي بطني!»

«لا تقوليها!»

«والله.. بكى مرتين. ورأيته في الحلم. هذه المرة لن يكون فيّ خير. أنا أشفق على أطفالي. سينهارون حيث هم..»

«هل مازلت مقاطعة حماتك؟»

«الله يبعث البلاء لحماة كهذه. لا تعطني شربة ماء حتى لو كنت أموت!»

«اضربي على السقف، وناديني يا أختي. ناديني حتى لو كنت نائمة.»

«الله يرضى عنك.. الله يجعل كل ما تمسكينه ذهباً.. الله يعزك في الدنيا والآخرة!»

أخرجت من عبها صرة صغيرة، وقالت: «خذي هذه! فيها خاتم ذهبي. ليبق معك. إنه ذكرى جدتي تركته لأمي. وأمي تركتها لي. وأنا أريد أن أتركه لابنتي. ولكنني يمكن أن أموت. ابنتي صغيرة، لا تستطيع أن تلبسه أو تخبئه. أما أبوها، فيأخذه، ويبيعه. ليبق عندك، وعندما تكبر ابنتي تعطيها إياه.. أم معنوية لها...»

تجمدت عينا جميلة على الصرة، ولم تكن راغبة بأخذها.

ألحت المرأة قائلة: «خذيه. حليبك طاهر، أنا أثق بك!»

«الله يعطيك من عطائه يا أختي. افتحي فمك على الخير.»

«أنا رأيته في الحلم، وقد بكى في بطني. خذي!»

أخذت جميلة الصرة، ودستها في عبها. ونزلت السلم وهي تحمل المرجل.

كان موسى النساج ينظر إليها من الخلف بغضب ممزوج بالشبق، فسأل زوجته بعد أن دخلت إلى الغرفة: «ماذا كنتما تتكلمان هكذا همساً؟»

«صدته المرأة: «ما علاقتك أنت؟ كلام بين اثنين!»

عادت للجلوس على العتبة التي نهضت عنها قبل قليل، وتناولت قميص زوجها.

قال موسى: «ولكن هذه البنت هي من النوع الذي أوصى لقمان الحكيم بالتهامها ها!»

نظرت المرأة متعبة بعينيها الزرقاوين الرطبتين، ولم تشعر بالغيرة. فقد نسيت كل شيء غير ولادة الأولاد، ووضع القدر على نار روث الحيوانات المجفف أو قشور جوز القطن اليابسة، وغسل خرق الأولاد ذات الخراء، والألبسة، وبعثرة الأولاد هنا وهناك من أجل الذهاب إلى المصنع عندما يتعثر عمل موسى.

«لنطلبها لك من العم مالك!»

ضحك موسى بمكر: «لديها كاتبها!»

«هيا، هيا.. لا ترتكب حراماً بحق البنت. إنها مثل الذهب!»

«نحن لم نقل إنها نحاس... وليبق حرامها برقبتها، ما علاقتي أنا.. الكل يلحق بها.. وهناك الجمال، أكثر رغبة من الجميع.»

«هل معه نقود؟»

«من؟ الجمّال؟»

«الكاتب؟..»

«تقولين كاتباً، ثم تسألين عما إذا كان معه نقود؟ فهل يعمل كاتباً لو كان معه نقود. عنده راتب ثلاثون ليرة.»

«يكفي. بعد أن يتفق القلبان...»

انتزع موسى شعرة من أنفه، وعطس، ثم التفت من هذا الطرف إلى ذلك مثل فرخ جاموس.

بعد أن غسلت جميلة المرجل جيداً بالماء، وضعته على الموقد، وملأته بالماء، وأشعلت ناراً متأججة تحته.

وفي الصحن الدائم الحركة، كان ابن موسى الأشقر الشعر يلعب «الحاح» مع أولاد الحي. نظرت جميلة إلى الطقس، فوجدته غائماً قليلاً، والغيمات تهرع ملاحقة إحداها الأخرى. قالت لنفسها: «هناك مطر على الأغلب!» تأخرت. الماء سخن منذ فترة طويلة، ويجب أن أكون قد جلست إلى الغسيل.

جاءت إلى الغرفة. كان والدها يحبك جورباً وهو يضع النظارة على عينيه: «أحسنت يا بابا! لو خطر ببال أبي وحبك كم زوجاً من الجوارب لهذا الصبي الكبير.»

ضحك أبوها ضحكة خفيفة.

«هل ينام الصبي، أم لا؟»

ودون أن يرفع مالك المسن رأسه عن عمله، قال: «مصاب بالصداع.»

«ما السبب؟»

«لا أدري؟ لا يقول شيئاً، ولكن هناك ما يشغل بال الولد. هذا ما يبدو لي.»

صعدت جميلة السلم، ورفعت اللحاف، ووضعت راحة يدها على جبين أخيها المشتعل مثل النار والمتصبب عرقاً.

«حرارته مرتفعة جداً!»

جسه أبوه أيضاً، وهز رأسه. قطب حاجبيه، وصار وجهه مخيفاً مرة أخرى.

قالت جميلة: «هل نعطه أسبريناً؟»

«نعطيه عندما نوقظه للاغتسال.»

«آلمني قلبي عليه يا أبي...»

«لماذا؟»

«لو أنني لم أكسر خاطره.»

تنهد أبوها، ونظر من فوق نظارته.

قبلت جميلة جبين أخيها الواسع الساخن المتصبب عرقاً، وقالت: «لو أنني مريضة بدلاً منه..»

خطرت قرة غول مرة أخرى ببال الرجل المسن: «يجب أن أفعل ما أفعله من أجل أن أنقذ هذين الولدين من أن يكونا طعاماً للمصنع!»

فكت جميلة وجوه اللحف، وأخرجت ستارة النافذة. وقد طرزت غوللو هذه الستائر بخيوط خضراء وزهرية وبنفسجية في العام الماضي.

أخرجت من صرتها ألبسة داخلية لنفسها، ونزلت إلى البيت السفلي، وغيرت ألبستها الداخلية. أخذت بعد ذلك لفة خرق العادة الشهرية التي تخبئها في فتحة الجدار، وخبأتها في قعر سلة الغسيل. كانت مرارتها تكاد تنفجر خوفاً من رؤية أبيها أو أخيها لهذه الخرق. مع أن أباها كان قد رآها سابقاً وهو يبحث عن البلطة في الأسفل، وضحك، ودسها من جديد في مكانها.

ارتدت صدارتها المفتوحة الزرقاء المزهرة بالأحمر التي خاطتها السنة الماضية، وصارت الآن قصيرة وضيقة. نهد ثدياها ككرتين صلبتين. خجلت. ثم لوحت بيدها بمعنى: «ولماذا تخجلين..» ورفعت فوقها السروال الأسود الطويل، وخرجت من البيت التحتاني حاملة سلة الغسيل الوسخ، ومشت إلى جوار الموقد.

لم يكن الماء قد وصل إلى درجة الاعتدال بعد. وبينما كانت تفكر فيما تفعله حتى يسخن جيداً، خطر ببالها دفتر الكتابة، فهرعت عائدة إلى الغرفة.

«بابا.. أعطني دفتر الكتابة من الصندوق!»

قال الرجل المسن: «واليوم أيضاً؟.. دعك منه اليوم.»

«هات، هات.. لئلا أؤجله.. حتى يسخن الماء...»

نهض الرجل المسن، وفتح الصندوق الخشبي المصبوغ بالأخضر، وبينما كان يتناول دفتر الكتابة الموضوع على الصرر، أفلت بين صرر جميلة.

مد مالك المسن دفتر الكتابة لابنته.

15

كان المعلم عزت متمدداً على جنب أمام النافذة، والنظارة على عينيه، ويقرأ كتاباً سميكاً. رفع رأسه برهة عن الكتاب، وتمطى مستمتعاً، ثم نظر طويلاً إلى زوجته المتمددة على ظهرها فوق الفراش المقابل له. كانت المرأة نائمة وهي تشخر شخيراً خفيفاً. وكان وجهها أصفرَ كعسل الشمع. اقشعر المعلم عزت فجأة. وجد أن اصفرارها أكثر من أي وقت مضى. يجب ألا تكون بهذه الصفرة. قال لأخته غوللو التي تخيط شيئاً ما عند قدمي زوجته: «افتحي هذه الستارة!»

رفعت غوللو ستارة النافذة المسدولة بجانب زوجة أخيها، ونظرت إلى أخيها. تبادلا النظر.

سأل المعلم عزت: «ماذا تقول؟»

قالت غوللو: «لا شيء.. عنادها عناد.. تقول إذا مت، فلأمت وراء الآلة.»

بينما كان الأخوان يتبادلان الحديث بالنظر، فُتح الباب بهدوء، ودخلت جميلة حاملة دفتر الكتابة.

ثنى المعلم عزت صفحة لكتاب، ورفعه إلى النافذة، وقال وهو يرفع نظارته: «أين أخوك؟»

«مريض»

«ما به؟»

«لا أعرف. تؤلمه رأسه.»

تناول المعلم عزت علبة الدواء من النافذة المجاورة لرأسه، ووضع نظارته، وأخرج زجاجة صغيرة من بين علب وزجاجات مختلفة الأحجام. كان في هذه الزجاجة حب أبيض صغير.

قال لجميلة: «سأعود حالاً!» وخرج من الغرفة.

وجد صديقه المسن مالك وهو يحبك جوربا..

«مرحباً يا قاطع الطرق!»

وضع مالك المسن نظارته على طرف الجورب الذي يحبكه، وقفز مفسحاً مكاناً للمعلم عزت.

«ما للشاب؟»

«والله لا أعرف يا عزت. قال إن رأسه تؤلمه، ونام.»

رفعا طرف اللحاف. كان صدري المغطى جبينه بقطرات العرق نائماً.

هزه أبوه من كتفه. لعق صدري شفتيه الجافتين بلسانه، وتمتم بكلمات ما، ثم انقلب من طرف إلى طرف.

عندما هزه أبوه مرة أخرى، هذى قائلاً: «التوبة يا معلم.. والله التوبة!»

تبادل المعلم عزت ومالك المسن النظر.

قال المعلم عزت: «إنه معلم النسيج السافل. يضغط كثيراً على هذا الولد. حكى لي نصرت. إنه يطلبه كثيراً إلى غرفته...»

«إيه؟»

«لعله يضربه. يهدف إلى تيئيسه من أجل أن يجعله يحكي ما يحكيه!»

صار وجه المسن مالك مرعباً. وقطب حاجبيه بغضب. وتحول إلى رئيس العصابة السابق المسعور في جبال يوغسلافيا قبل سنوات طويلة.

هدر بصوته: «الله يبعث له البلاء. الله يبعث لي البلاء إذا لم أشرب دم من يمس ولديّ!»

خاف المعلم عزت من عيني صديقه المسن المرعبتين. أمسك ذراعه. لم تكن تلك ذراع مسن، بل عتلة، وقضيباً حديدياً.

«لماذا لا يخبرني؟.. لماذا لا يقول لي؟»

هدأ المعلم عزت الجو بقوله: «لعله لا يضربه.. لا أعرف.. هذا ما يبدو لي..»

«قبل قليل جاء من العمل متأخراً. والبنت جاءت متأخرة. سألتهما عن سبب تأخرهما، ولكنهما كذبا علي. هناك أمر يخبئانه عني. أفهم هذا، ولكنني لا أنبش به.. حالياً.. أصبر...»

«لا يوجد شيء أبداً يا مالك آغا. ولداك قطعتا ألماس!.. وكل منهما يساوي وزنه ذهباً. لا تخف أبداً!»

«أخاف يا عزت.. أخاف من المصنع! يبدو لي أنني سأقدم ولدي طعاماً للمصنع ذات يوم. أنا خائف!»

«لا تخف.. لن يحدث شيء...»

اعتقد المعلم عزت بأن هذا هو الوقت المناسب لأن يضع الحجر في الهدف، فقال: «كبرت جميلة ما شاء الله. إذا ظهر طالب مناسب لها غداً...»

غضب المسن مالك مرة أخرى، وقال: «الله لا يرينا! سآخذ ولديّ، وأذهب إلى قرة غول. لا أريد أن أتركهما في المدينة.»

«ماذا ستفعل في قرة غول؟»

«سأنصب غرفتين بيدي، وأنقذ ولديّ من هذا المكان...» أبرقت عيناه مرة أخرى: «... عمري ستون عاماً، ولكن لا تنظر إلى هذا... يمكنني أن أقود المحراث عشر سنوات أخرى. أحرث أرضي، وأزرعها، وأحصدها بنفسي.. ماذا وجدنا في هذه المصانع؟ ها؟ ماذا وجدت أنت؟ إنك تعمل منذ سنوات، وهاهم التقطوك، ورموك. زوجتك مصابة بالسل، وابنك ذبح تحت عجلات القطار. لماذا؟ كله بسبب المصنع. لو أن أمه باقية فوق رأسه لأجلسته على ركبتها. انظر إلى صحن الدار هذا. إنك لا تستطيع أن تعيش من كثرة: آخ تفوه، آخ تفوه...»

قال المعلم عزت: «لا تزعج نفسك، لا تزعج نفسك. ستكون الأمور جيدة.»

«ابتلع هذا المصنع زوجتي الشبيهة بالوردة! أما أنا... خذ!» وشمر عن ذراعه. وأشار إلى مكان مازال يحمل تجعد العروق الواضحة عليها آثار مسنن الآلة: «سحبتها من بين أسنان الآلة! بعد ذلك تبت عن المصنع! ولكنني أشغّل ولديّ... إنه الفقر، ماذا أفعل؟»

قال المعلم عزت الذي ينظر إلى ذراع المسن المجعد المرتخي جلدها: «هذا يعني أنك أنت أيضاً اشتغلت؟»

«عدة سنوات. وكيف التقط ذراعي، وابتلعها حتى مرفقي؟.. صارت العظام ناعمة كالرماد.. عانيت خمسة عشر شهراً.. خمسة عشر شهراً بالضبط!»

أيقظ المعلم عزت صدري..

تمتم صدري وعيناه حمراوان جداً: «ماء!»

ذهب أبوه، وجلب كوباً مليئاً بالماء.

أخرج المعلم عزت حبة مدورة من زجاجة صغيرة كانت بيده، وقال: «خذ! إنها لوجع الرأس، وهي واحد بواحد للحرارة. ضعها على لسانك، وابتلعها مع الماء..»

فعل صدري هذا، وابتلع الدواء، ثم قلب الماء الذي في الكوب في جوفه، وانقلب من جديد على فراشه. غطاه أبوه، ولف ظهره جيداً، ثم جلس بجانب ابنه.

نهض المعلم عزت. انتبه الرجل المسن فجأة، فقفز: «لا يجوز.. غير ممكن.. لنشرب قهوة معاً..»

أجلس المعلم عزت بصعوبة.

«عند جميلة درس يا قاطع الطرق!»

«لتأتِ إلى هنا.»

«غوللو أيضاً هناك.»

«لتأتِ هي أيضاً.»

ذهب، وجلب غوللو وجميلة. وبينما كانت جميلة تفتح كتاب القراءة، أنزل مالك المسن عن الرف القهوة والسكر، وغلاية القهوة ذات الأربعة فناجين، وموقد الكحول.

16

حين أنهت جميلة درسها بشكل متعجل، ونهضت، كانت الساعة تقترب من الثانية. كان الماء قد سخن، وحضرت ماء الاغتسال لوالدها في الطابق السفلي من البيت. إنهم يغتسلون هناك دائماً، وتراب الأرضية لا يجف أبداً، وتفوح رائحة الرطوبة من الطابق السفلي.

نادت أباها: «هيا يا أبي.. تعال اغتسل، ونادني لأفرك لك ظهرك... سأجلس أنا إلى الغسيل.»

غرز مالك المسن الإبرة في الجورب، ونهض، ثم نزل إلى الطابق السفلي.

وضعت جميلة طست الغسيل بجانب الموقد وهي تتمتم بأغنية، وسكبت فيه ماء مخلوطاً بالرماد رطبته به. وفتشت المكان فيما حولها قبل أن تدس خرق العادة الشهرية تحت الغسيل، ثم سحبت كرسيا خفيضاً، وجلست عليه.

أرغى الصابون رغوة عالية في الماء المخلوط بالرماد. كانت يداها غليظتي العظام ومعصماها قويتان تقرن جلدهما، وأصابعها معوجة وبارزة العظام مثلها مثل كثير من الفتيات اللواتي يعملن في المصنع في سن مبكرة. تغط الغسيل بالماء، وتفركه بالصابون، وتعصره، ثم تضعه بين يديها القويتين. كان تغسل باندفاع وحيوية وهي تردد أغنية، فتتناثر فقاعات الصابون نحو الأطراف بفرح. يرتفع صوت الأغنية أحياناً، وينخفض أحياناً، ثم تعود إليها من جديد بعد أن تتوقف في أحيان أخرى. كانت تلك أغنية شعبية بوسنية.

ثمة جيشان الألوان في بساط من صنع قبائل الأفشار في تلك الأغنية. وثمة حسرة في تلك الأغنية، وثمة رغبة، وثمة عشق.. وكانت زخارف تلك الأغنية موجودة في الهند والصين والدار البيضاء ونيويورك ووادي بو وسهول أمريكا الجنوبية ووسط الأناضول. كانت تلك الأغنية مطرزة بحسرة الإنسان، ورغباته.

ولكن جميلة لا تعرف متى تعلمتها، وأين، وممن تعلمتها، فتغنيها فقط، وتتهيج عندما تغنيها، ويفيض قلبها عندما تغنيها، فتجد أصعب الأعمال سهلة، ولا تدرك كيف تجدها سهلة.

مازالت تلك الأغنية على لسانها، وقطرات العرق على جبينها.. وبالتدريج تزايدت هذه القطرات، واحمر خداها المكتنزان. شردت، وانجرفت بالعمل إلى أبعد الحدود.. سقط البراغيث على الألبسة.. لابد لها أن تنتزع ذلك السقط! وكان ذلك السقط يعاند. يجب أن يكون عناد جميلة أشد من عناد ذلك السقط.. لابد لها أن تُزيل ذلك السقط! ومع انحنائها، ونهوضها بانهماك كانت ضفيرتا شعرها القوي النازلتان إلى ما تحت خصرها ترتفعان، وتنخفضان، وخصلات شعرها المتحررة من ضبة الشعر تدخل في عينيها. غضبت منها كثيراً.. في أحد الأثناء دفعت خصلة شعر بمعصمها. لم تسوَّ. نهضت، قائلة: «إنها هَمٌّ.. يا سافلة!» ولفت خصلة الشعر بأصابعها الرطبة، ودستها بين شعرها، وبعد أن حبستها بضبة الشعر، انحنت على الغسيل. غطت سقط البراغيث بالماء، وصوبنته، ثم فركته، وغطته مرة أخرى، ثم فركته مرة أخرى. وكررت هذا العمل مرات عديدة. وبعد فترة طويلة استسلم سقط البراغيث لعناد جميلة. ضحك بؤبؤا عيني جميلة، فكررت الأغنية نفسها بصوت أعلى.

كانت جدة موسى «تتكا بيلكا» البالغة الخامسة والتسعين من عمرها تتشمس خلف حامية الشرفة في موزع الطابق العلوي تتفرج على كل هذا، وقد شردت بأغنيةِ جميلة، وهي تغم عينيها.

كانت تتكا بيلكا أيضاً تغني هذه الأغنية في شبابها. ذكرت هذه الأغنية تتكا بشبابها، «وبسراي بوسنة»، وليالي البوسنة المضيئة التي تتمايل فيها الأشجار المحملة بالفاكهة بشكل خفيف. بدأ لديها عالم زاهي الألوان فقدته منذ سنوات طويلة...

حين توقفت الأغنية فجأة، فتحت تتكا بيلكا عينيها. انفعلت. وبعد أن مسحت دمع عينيها براحتي يديها الجافتين، قالت: «الله لا يريك يوماً سيئاً يا ابنتي. الله لا يبكيكِ!»

كانت جميلة قد شردت، إلى حد أنها ارتعدت. كانت تتكا بيلكا ذات الوجه الشبيه بتفاحة جافة تبتسم.

قالت جميلة: «يسلم لسانك يا تتكا!»

«الله يجعلك تصدقيني يا جميلة، عندما أراك أنسى أنني سأموت!»

سرت جميلة كثيراً من هذا. أطلقت ضحكة مجلجلة. وضعت الغسيل بعد ذلك تحت قبضتيها برغبة أكبر، وقوة أشد.

كأن وجه جميلة قد غسله العرق حين ناداها أبوها من تحت البيت من أجل أن تفرك ظهره بالصابون. نهضت، وذهبت، وفركت ظهر أبيها بالصابون بقوة، ودلكت عظام الرجل المسن البارزة براحة يدها. طفحت عيناها عندما تذكرت أنه سيموت يوماً ما، وقوله: «ادفنوني بجانب زوجتي، مفهوم يا جميلة!». وكان والدها يكرر عبارات من هذا النوع كثيراً في الأيام الأخيرة. ولهذا السبب، عندما ترى أباها نائماً، تعتقد أنه متمدد وهو ميت، فتبدأ بالبكاء. وخاصة ذات ليلة عندما دققت بخلف رقبته وهو ذاهب لصلاة التراويح. كيف جفت، وتجعدت! فبكت في فراشها حتى عودة والدها من الصلاة.

عادت مرة أخرى إلى الغسيل.

ارتدى مالك المسن ألبسته النظيفة، وجاء يتفرج على ابنته وهو يضع يده على خصره.

دفعت جميلة جذع الشجرة الذي أمامها، وقالت: «اجلس يا بابا، اجلس، وتعلم. لعل هذا يلزمك يوماً ما.»

وضع المسن مالك الجذع تحته، وجلس مقابل ابنته تماماً. وبعد أن أشعل سيجارته، قال: «سيحدث هذا يا ابنتي، سيحدث هذا أيضاً.»

نهضت جميلة، ونظرت إلى والدها نظرة حادة. ترى هل فهمت الأمر خطأ؟ حاولت أن تصحح: «لعلني أموت..»

هز الرجل المسن رأسه، وقال: «إيه، وهذا أيضاً سيحدث، ولكن الدور ليس عليك!»

فاض فيضان آخر في قلب جميلة. أطرقت برأسها تماماً نحو الغسيل لكي لا تُري دموعها لأبيها. وأعطت نفسها تماماً للغسيل.

كان المسن مالك يتفرج على ابنته فخوراً بها. كان يجد فيها الجوانب التي تشبه زوجته: أنفها الدقيق والمرتفع رأسه قليلاً، وشفتاها المكتنزتان.. وركها؟.. إنها مطابقة تماماً لزوجته وصولاً إلى لون معصميها المكتنزين. شعر ابنته فقط أكثر شقرة وقوة. وهي مثل زوجته تتصبب عرقاً، ويرتجف طرف فمها عندما تعجن العجين، وتغسل الغسيل.

نادت تتكا بيلكا بالبوسنية من الأعلى: «أوه يا مالك! كم تشبه جميلة أمها!»

هز المسن مالك رأسه ببطء، ولم يجب.

«الله لا يُبكيك، ولا يُريك يوماً سيئاً!»

وتحت دفء أشعة الشمس النازلة على ظهره بدأ المسن مالك يغفو، ويتأرجح في مكانه.

كان صحن الدار الواسع في حالة حركة لا تهدأ. هناك من يدخل أو يخرج إلى الغرف المتلاصقة الواحدة بجانب الأخرى.. ومن تغسل رأس ابنتها بالصابون أمام غرفتها، ومن تغسل الغسيل.. وعلى رأس هؤلاء ابن موسى النساج ذو الشعر الأشقر الذي يلعب الحاح(*) مع الأولاد. يطلق أقذع الشتائم كالبرق أحياناً.. كان حاح الأولاد يسقط في كثير من الأحيان بجانب جميلة. وفي إحدى المرات وقع على حافة الطست النحاسي.

قفزت جميلة، وصرخت قائلة: «أولاد الحرام!»

رد ابن موسى الحليق الشعر بالمكنة على النمرة صفر: «لماذا تشتمين يا بنت؟»

هذا الجيل جيل الأحفاد. إنه يتكلم مثل المحليين تماماً. أكثرهم نسي لغة أمه. يتكلمون مثل المحليين، ويشتمون مثلهم. ويحاولون أن يرتدوا ثياباً كالمحليين.

قالت جميلة: «ماذا لو أصابني في عيني؟»

«هل أصابكِ؟ ليصبكِ أولاً ثم احكي...»

كان مالك المسن قد استيقظ. نظر إلى الأولاد بعينين ناعستين، ونهض ببطء. تفرق الأولاد مثل صغار الحجل. وبعد قليل، ظهر الولد الأشقر عند باب الصحن حاملاً بيده حاحه. كان ينظر إلى جميلة نظرة حادة تُظهر غضباً شديداً... أرادت أن تنهض، وتقبض عليه، وتشده من أذنيه، وتصفعه على وجهه!

(*) لعبة يستخدم فيها الأولاد عصا طويلة، وأخرى قصيرة بطول شبر مدببة من الطرفين، ويضرب اللاعب العصا القصيرة على أحد رأسيها المدببين بالعصا الطويلة، فترتفع في الهواء، ليضربها بعيدًا مرة أخرى.. المترجم.

في هذه الأثناء جاءت غوللو راكضة: «جلست إلى الغسيل، لماذا لم تنادني يا بنت؟»

هزت جميلة كتفها.

قالت غوللو: «عندما يكون عندي شغل ألا تساعدينني يا أختي؟ كل هذا الغسيل لا يمكنك أن تنهيه حتى المساء وحدك!»

شدت الجذع الذي أفرغه مالك المسن إلى تحتها، وجلست. شمرت عن ذراعيها، وانخرطت بالعمل. بدأت الصبيتان بالغسيل كأنهما تتسابقان. وفي هذه الأثناء جاءت حليمة زميلة جميلة في المغزل، وشمسة ابنة أخت موسى.

«الله يعطيكما العافية.. هل نساعد أيضاً؟»

قالت غوللو: «لا حاجة، لا حاجة.. الله يديم عليكما مساعدتكما!»

أضافت جميلة: «لو تنشران!»

جلست الفتاتان بجانب الطست بعد أن تدبرتا كرسيين. كانت جميلة وغوللو تغسلان بانهماك أجج شهية الأخريين.

شمرت حليمة عن ذراعيها، وقالت: «وأنا أيضاً سأغسل يا أختي، ما المانع؟» وبدأت العمل.

كانت الضحكات تتعالى، والمزاح يتزايد، والقهقهات تصدح، ويتقاذفن رغوة الصابون أحياناً، ويطلقن الصرخات.

قذفت غوللو شمسة ابنة جوغلا بحفنة رغوة، وقالت: «احك يا ابنة المدارس. هل مازلت تذهبين إلى السينما؟»

غضبت شمسة ذات الشعر الأشقر المتماوج. كانت في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية. دخلت الرغوة في عينها وهي تغسل: «يا أخت غوللو، أنت واحدة...»

قذفتها غوللو بحفنة أخرى من الرغوة، وسألتها: «ما أنا؟ ها؟ ما أنا؟»

«لا شيء.. لا شيء.. التوبة.. لم أقل لك...»

«آه منك يا ابنة المدارس!.. سأغطك بالطست والله!»

قالت حليمة: «هل تذهبين إلى السينما؟»

غوللو: «وهل يمكن ألا تذهب؟ يعلقها حبيبها بذراعه، ويأخذها.»

قالت شمسة: «تفوه! المدرسة تأخذنا...»

«آه منكن يا بنات المدارس عدوات النعمة، آه.. لدى كل واحدة منكن ثلاثة أو أربعة..»

«يا الله من هنا..»

سألت جميلة: «أنا لم أذهب في حياتي إلى السينما! هل هي غالية؟»

أجابت شمسة: «البلكون بخمسة وعشرين، والصالة بأربعين.. ولكن الصالة ليست جيدة، تمتلئ بقليلي التربية.»

«هل هي مثل الصور يا بنت؟.. كيف هي؟»

«هناك ستارة.. عليها.. مثل الصورة، ولكنها صورة حية.. إنها جميلة جداً، تأتي نساء أنيقات.. منذ فترة عُرض فيلم.. إيه.. يعني بكى الجميع... كان جميلاً.. جميلاً جداً! زوج المرأة أطلق النار على عشيقها!»

قالت جميلة: «هم! عشيق زوجته؟»

«إنها سينما يعني... كانت المرأة جميلة جداً.. سحب زوجها المسدس، وأطلق على الرجل. كان الرجل يبتسم حتى وهو يموت!»

قالت غوللو: «من هذا يبدو أنه كذب.. سأتلقى رصاصة، وأضحك أيضاً.. هناك عقل، وهناك منطق...»

«إنها سينما يا أخت غوللو، مثل الرواية... ليست حقيقة ياه... عرض

بعد ذلك بلد في الليل، آه... صامت، وكل الأرجاء نائمة، وإذا سألت عن الشوارع، فاسكبي عليها العسل، والعقيه من نظافتها.. نومت المرأة الجميلة التي ذكرتها زوجها. وهم لا ينامون كلهم - الأب والأم والأولاد- في غرفة واحدة مثلنا. غرفة المرأة وحدها، وغرفة الرجل وحدها...»

قالت غوللو: «لا تنظري إلى هذا، إنها سينما. وهل ينام الرجل والمرأة منفصلين؟»

قالت جميلة: «ليعملوا مثلنا ليلاً نهاراً، ونرى... وهل نستطيع أن نرفع رؤوسنا من العمل؟ ورغم هذا يأتينا زمن لا نستطيع تحصيل الليرة إلا بصعوبة ونحن أخوان.»

قالت غوللو: «صحيح يا أختي. لو كانوا مكاننا، فلا ينهضون من الفراش على أنهم مرضى.»

«ونحن نعرف طعم فمنا. الإنسان ستارة للإنسان. أليس لديك نقود؟ لا أحد أقل منك، ولا أحد أرذل منك.»

«والله...»

«مهما يكن... نومت المرأة زوجها، وخرجت من البيت بهدوء. ولابد أنها واعدت حبيبها من قبل، فكانت هناك سيارة تنتظرها. ركبت المرأة، ويا الله!»

سألت جميلة: «أما مشطت المرأة شعرها؟»

«لا أعرف. لم يُرونا هذا. كان شعرها ممشوطاً.»

«كان شعرها ممشوطاً، ولم ينتبه زوجها؟ ألم يقل لها لماذا لا تفكين شعرك، ألن تنامي؟»

قالت غوللو: «إنها سينما...»

أيدتها حليمة: «طبعاً يا روحي.»

قالت غوللو: «من هذا يبدو أنها كذب. رجالنا، وخاصة رجلي، يفهم هذا من وقفتي والله... سأنومه وشعري ممشوط، ووجهي عليه بودرة وما بودرة، ولن يفهم ها! يجب أن يكون الإنسان حماراً...»

قالت حليمة: «إنها سينما يا روحي.»

قالت شمسة: «يا أخت جميلة، هناك شاب في السينما، مثل الأخ صدري بالضبط. إنه نصف تفاحة، والأخ صدري نصفها الآخر!»

قطبت جميلة حاجبيها، وقالت: «وهل يذهب إلى السينما من دون علمي؟»

«لا.. ليس هكذا.. في الفيلم...»

«قولي هذا أولاً.. ليذهب دون علمي، وشاهدي!»

قالت غوللو: «ماذا تفعلين؟»

«أقوم القيامة.»

«هدئي من روعك...»

«ليجرب الذهاب.. وهل تدفع نقود لأمكنة كهذه؟.. انظري إلى وضع أغطية الفرش هذه! انظري إلى هذه السراويل، وهذه القمصان... بالنقود التي تُدفع هناك يُمكن أن نحل مشكلة من مشاكلنا!»

«بنات المعمل عندكم يذهبن أيضاً.»

«البنت السمراء، وأمثالها أليس كذلك؟ هؤلاء يذهبن، لديهم أصدقاء يتحملون النفقات.»

قالت غوللو: «لماذا؟ أليس لك أنت؟»

قذفتها جميلة بحفنة من الرغوة: «قليلة الأدب.»

هذه لتلك، وتلك لهذه... تصاعدت أصوات القهقهات والصراخ، وفجأة سُمع صوت مجموعة من السكارى في الخارج! أصغت الفتيات.

قالت غوللو: «إنه صوت العين الزجاجية!»

طارت نشوة جميلة. بحثت عيناها عن أبيها بقلق. حمدت ربها لأنه لم يكن موجوداً.

قالت غوللو: «لا تخافي، أبوك غير موجود. عندما كنت قادمة قبل قليل رأيته ذاهباً باتجاه السوق.»

أما الصراخ فقد كان يقترب تدريجياً.

«لنرمها، لنرمها..»

«إلى أين؟»

«كل شخص إلى حضن من يحب!»

«هيـ.....ـه!!»

قالت غوللو: «أما قلت لك؟ كانوا جالسين للشرب! حلّقوا كلهم...»

«هذا يعني أن البنت السمراء كانت معهم؟»

«طبعاً.. وهل ينقذها المكان تحت؟»

ولحظة وصول السكارى إلى باب الصحن، دخلت البنت السمراء بحركة خطيرة.. أصغى أهل صحن البيت، ونظروا إلى باب الدار، وتضاحكوا. اجتمعوا ثلاث وخماس، وبدؤوا الهمس.

صرخت البنت السمراء: «إيـ.....ـه يا الله!» واقتربت من طست الغسيل.

حاولت أن تقف على قدميها، فلم تستطع. أرادت أن تجلس القرفصاء، فلم تسطع أيضاً. كادت تسقط. استندت إلى الأرض، وتمكنت في النهاية من الجلوس، وأمسكت بحافة الطست بقوة. كانت تضحك، وتفتح عينيها المنتفختين بصعوبة.

قالت غوللو: «ما هذه الحال يا بنت؟ ألا تخجلين؟»

«وما المخجل في هذا؟ جلست، وشربت محافظة على شرفي.»

«عيب يا بنت، عيب...»

«ضعي نقطة فوقها فتصبح غيب...»

«.....؟»

«أنا أطير، سكرانة! قلبنا نحن الثلاثة عشر زجاجات.. رأسي يدور مثل مستشفى مجانين...»

«مع من شربتم؟»

«ابن خالي، وتبع هذه (أشارت إلى جميلة) جمّالها!»

غضبت جميلة: «يا هم! ما الذي يجعله جمّالي؟»

ضحكت البنت السمراء مقهقهة، وقالت: «إنه يتحرق فيك! يقول: أبيع جمالي كلها، وأنفقها عليها.»

«لتنـزل جماله على رأسه.»

في هذه الأثناء دخل المسن مالك إلى صحن الدار. كاد قلب جميلة أن يتوقف. ماذا لو انتبه أبوها للأمر؟ ماذا لو صرخ الذين في الخارج، وذكروا اسمها؟

عبر أبوها الصحن حاملاً خبزاً ناضجاً محمراً، ثم دخل إلى الغرفة.

قالت جميلة: «يا أختي غوللو، يا أختي.. لتذهب هذه! ستعمل شيئاً غير مناسب.. أرجوكِ يا غوللو!»

نهضت غوللو، وسحبت البنت السمراء من كتفيها، وأنهضتها على قدميها، وأمسكتها بقوة، وقالت: «هيا، لنذهب إلى عندنا!»

سألت البنت السمراء: «وهل ستأتي هذه أيضاً؟»

قالت غوللو: «ستأتي.. لتنه غسيلها، ثم تأتي.»

«إذا لم تأتِ فلن آتي، مهما كلف الأمر لن آتي...»

«ستأتي، ستأتي هي أيضاً..»

نظرت البنت السمراء إلى جميلة بعينين مغشاتين، وقالت: «هل ستأتين؟»

قالت جميلة: «سآتي، سآتي..»

«إذا ذهبت، فأذهب أنا.. وإذا لم تذهبي.. النقود بالأطنان مع الشاب. سيسكنك دوراً وقصوراً.. في الدور والقصور سيعيشك..»

«أي يا غوللو، أرجوكِ...»

«هيا يا بنت!..»

عندما سحبتها من ذراعها، ترنحت البنت السمراء، وانهارت منبطحة على وجهها، وبقيت على ما هي. حملتها غوللو وحليمة من رأسها وقدميها، وأدخلاها إلى غرفة المعلم عزت.

قالت شمسة: «لا تحزني يا أختي. ماذا ستفعلين؟ إنه بلاء حل بك.»

مازال وجه جميلة شاحباً كالكلس، قالت: «أنا لا أعرف الرجل، ومشغولة بعملي هنا...» بدأت تنوح فجأة. بينما كانت تبكي ناشجة وهي تنشق، كانت تنظر إلى أبيها خائفة أن يسألها عن سبب بكائها، فتحاول الإمساك بنفسها.

«إنه الفقر.. آه من الفقر! قوة أي شخص تتمكن منا.»

قالت شمسة: «اسكتي، لا تبكي...»

«يقولون ليكن الإنسان بحاله.. ها أنت ترين، هل لي علاقة بهم؟»

مازالت جميلة تبكي عندما عادت غوللو وحليمة.

«اسكتي يا أختي، اسكتي.. لا تبكي.. خمدت، وهي نائمة. مؤسف أن تذرفي دمع عينيك.»

جاء المعلم عزت. وجلس القرفصاء عند الطست بجانب جميلة، وقال: «اسكتي، لا تبكي.»

«شغل طوال اليوم. عودي من الشغل إلى البيت، واجلسي إلى شغل البيت.. لا علاقة لي بأحد، ولا أكلم أحداً. أصد أياً كان حتى أخي إذا كلمني في الشارع. لأن قلبي ينقطع من الخوف خشية أن يراني أحد، ويخبر والدي.. رغم هذا.. انظر إلى هذه! ماذا لو سمع والدي؟»

نهض المعلم عزت على قدميه، وتنهد، وغم عينيه، ثم قال: «أنا سأكلم أباك بصراحة. لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا النحو. لا تشغلي بالك أبداً.»

نظرت جميلة عبر رموش عينيها الطويلة.

قال المعلم عزت: «نعم، ذلك الأمر...

تبادلا النظر فترة.

«ما أطيبك من إنسان...»

لم يجب المعلم عزت. عاد إلى غرفته.

***

والد صدري أيقظه بصعوبة. كان نوم الولد ثقيلاً جداً. نهض، وكان يترنح.

«كيف رأسك؟»

«مليحة... ليس فيّ شيء...»

نزل السلم، خلع طاقي الثياب اللذين يرتديهما في القسم السفلي من البيت، وبدأ يغتسل. وبينما كان الولد يغتسل، وضع المسن مالك نظارته على عينيه، وفتح لحاف الولد على الأرض ليبحث عن قمل. بحث طويلاً

وفي كل ثنيات اللحاف بدقة، لم يكن هناك قمل. لأن جميلة دقيقة كثيراً بهذه الأمور فتغسل الغسيل كل أسبوع، وإذا تأخرت كثيراً كل أسبوعين، وتغليه جيداً. ولكن ليس ثمة ضمانة. لأنه لا يمكن معرفة وضع الذين يدخلون، ويخرجون، ويجلسون...

طوى المسن مالك اللحاف، ووضعه على طرف الفراش، وجلس يحبك الجوارب ثانية. وما إن أمسك الزوج الثاني، حتى ناداه صدري من الأسفل. كان يناديه من أجل أن يفرك له ظهره. نزع نظارته، وغرز الإبرة في الجورب، ونهض، ونزل إلى الأسفل.

وبينما كان يفرك ظهر الولد بالصابون، قال: «لا تنس أن تنوي الاغتسال!»

احمر وجه صدري حتى أذنيه.

«أم أنك لا تعرف؟»

«.....؟»

«أنت ولد مسلم والحمد لله. أيمكن ألا يعرف الإنسان كيفية الاغتسال؟ إذا كنت لا تعرف، فاسأل!»

عرفه بالاغتسال والوضوء و«المضمضة»

حين كانت الفتيات ينشرن الغسيل، كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا ربعاً.

قالت جميلة: «اغتسل أخي، والآن دوري.»

قالت غوللو: «نادني لأفرك لك ظهرك، موافقة؟»

«إيه...»

أخذت ماء ساخناً من المرجل، وفترته، وبدأت تغتسل. جسمها ناصع البياض، وذراعاها مكتنـزتان، وصدرها ناهض... إنها تغسل رأسها بالصابون

كثيراً لخوفها من القمل. وتكشط أرض رأسها عند جذور الشعر كأنها تخمشه. عند الغسلة العاشرة نادتها غوللو من الخارج.

قالت جميلة: «تعالي، هيا تعالي.»

دخلت غوللو بهدوء. وأغلقت الباب خلفها بالمزلاج. وبدأتا تتكلمان همساً.

كان مالك المسن شارداً بالجورب الذي يحبكه، فلا يسمع، وليس لديه فضول للتنصت.

قالت جميلة: «وأنت أيضاً لم تنامي بسببي!»

أجابت غوللو: «أرجوكِ.. وهل يتركني ابني؟ كيف ما كان فلن أستطيع النوم. إما أن يشاجر الآخرين في الزقاق، ويأكل الضرب، ثم يأتي، أو يضرب أحدهم، فيأتون ليشكونه ... هذا هو شغلي كل يوم! العزوبية سلطان والله... ستجلبين الهمّ إلى رأسك...»

بينما كانت غوللو تفرك ظهر جميلة الناصع البياض، والسليم البنية، كانت تضرب على راحة كفها، وتقول: «أنثى، أنثى! طلع هذا الكاتب محظوظاً.»

ضحكت جميلة فخورة.

«من سيأخذك يجب أن يكسوك، ويجهزك، ويجلسك في صدر البيت!»

«ممكن. وهل هناك خبز مجاناً!»

غطى بخار حار ما تحت البيت.

قالت غوللو وهي تنهض: «هيا، أنا ذاهبة.»

قالت جميلة: «تسلم يدك! إذا لم تناديني يوم تغسلين...»

«أناديك... أناديك...»

بعد أن حاولت جميلة تجفيف نفسها جيداً بالمنشفة نفسها التي نشّف فيها أبوها وأخوها نفسهما، ومازالت رطبة، ارتدت ثيابها. ذهبت، وقبلت يد أبيها.

وأبوها قبلها من جبينها، وخديها. رفعت الصفائح بعد ذلك، والصابون، وطاس الماء، والجذع الذي يجلسون عليه، وشطفت الماء المتراكم. رتبت المكان في الأسفل. مشطت شعرها، وربطته. لم يبق لديها عمل آخر حالياً، ويمكنها أن تنام. كان ينام أخوها الكبير وأبوها في فراش، وهي تنام في فراش آخر وحدها.

خرجت، ونشرت المنشفة الرطبة بجانب الغسيل، وثبتتها بالملاقط. لقد هب الريح. نظرت إلى الجو، فشعرت بالضيق. يبدو أن الجو سيمطر. فالغيوم القذرة تكبر تدريجياً، وتنتفخ.

عادت إلى الغرفة، وقالت: «أنا سأنام يا أبي، ولكن هناك مطراً في الجو. اجمع الغسيل إذا أمطرت، وإلا سيفسد!»

نظر مالك المسن إلى الخارج عبر النافذة المجاورة له. ثمة مطر في الجو حقيقة، وتسود الشمس تدريجياً. وفي البعيد هناك بيوت خربة، وركام قرميد وأخشاب متفسخة، وجدران مهدمة... وفي البعيد بركة كبيرة لا يجف ماؤها الطحلبي بأي شكل لا في صيف ولا في شتاء. وفي كل صيف تغزو الحي ملايين البعوض من تلك البحرة.

تمدد مالك المسن بعد أن أغلق النافذة. لف ابنته من عند ظهرها باللحاف جيداً، وانكب على الجوارب.

17

وضع مالك المسن في غلاية القهوة التي تتسع لفنجانين سكراً، ثم نظر إلى الساعة التي تدور مقرقعة على الرف: كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً. هذا يعني أن جميلة نائمة منذ أربع ساعات، وأن الأولاد يمكنهم أن يناموا نصف ساعة أخرى.

عندما وضع البن في الغلاية، فتح باب الغرفة بهدوء، ودخل موي المسن حاملاً تحت إبطه «غوسلي»(*) الشبيه بالطنبور، وأوتاره من وبر الخيل.

«السلام عليكم»

نهض مالك وهو يقول: «وعليكم السلام!»، وتناول من رفيقه القديم بالسلاح «الغوسلي»، وساعده على صعود السلم، ثم جلس في مكانه، ووضع أمامه مطربان القهوة والملعقة.

في تلك الأثناء لمع برق عبر زجاج النافذة.

تذكر مالك المسن تنبيه ابنته في النهار، فسأل: «هل تمطر؟»

كان موي المسن الضئيل أعرج وأعورَ. قال: «إنها تمطر رذاذاً!»

«ستنهمر الرحمة بغزارة. لأجمع الغسيل.»

موي المسن ابن بلد مالك المسن، وصديق طفولته. ترعرعا في قصبة الواقعة على نهر طارا، وبدأا معاً باستخدام السلاح. وكانا معاً في كل شيء. ومالك مازال يحبه، حتى إنه يمكن أن يضحي بدمه من أجله في عمره المتقدم هذا. وحتى إنه يمكن أن يدخل السجن من أجله رغم وجود صدري وجميلة.

لم يبق لموي غير ابنه. وهذا في الشرق، في مكان بعيد، وبعيد جداً يخدم في الجندية.

وقبل أن يهرب ليتخلص من المجزرة التي بدأت إثر مقتل نائب الجبل الأسود «بوشكو بوشكوفيتش» بتحريض من أمير آغا أحد وجهاء البلد، كان اسم مالك وموي يحدث تأثير الصاعقة على الصرب. وقد كان اسم مالك وأصدقائه لا يزعزع قلوب المسيحيين فقط، بل المسلمين أيضاً.

(*) غوسلي : آلة موسيقية.

كان يسمع وقع حوافر الخيول في الليالي العاصفة والماطرة والهادرة. وكان أولاد القصبة يختبئون تحت اللحف بعيون محملقة رعباً، ويستمعون إلى أصوات الليل وهم يشعرون بالقشعريرة. وينطلق الصراخ من أحياء المسيحيين في القصبة، وتصفع الأبواب، وتتكسر الأخشاب في أمكنة ما، وتنطلق البنادق، وبعد ذلك تبدأ ألسنة اللهب الحمراء بلعق ظلمة الليل القذرة.

وصباح اليوم التالي، تعلم القصبة برعب بأن عصابة مالك وموي قد غادرت القصبة على خيولها تاركة القبطان فلاناً والشخص علاناً مقطوعي الرأسين.

لا يمضي وقت طويل. مرة أخرى يأتي الفرسان على خيولهم إلى البيوت الخربة في القصبة في ليلة عاصفة وماطرة وهادرة. ويرتفع هذه المرة صراخ نساء وأطفال حي المسلمين، وتُكسر الأبواب، وتربط رؤوس دامية تتصاعد منها أبخرة الثأر الدافئة على كفل الخيول، ويُغادر كالريح.

لم يكن هناك حد للجرائم التي ترتكب من أجل خاطر الجامع والكنيسة.

ذات ليلة وقعوا في كمين في الغابة. الرصاصات الثلاثين المنطلقة من أفواه ثلاثين بندقية والتي خرقت الليل من ثلاثين مكاناً، لم تصب مالكاً الذي كان يتبول في تلك الأثناء، ومات خمسة من رفاقه، وأصيب موي برجله.

كانوا على ضفة نهر طارا. الذين بقوا أحياءً قفزوا إلى النهر، وذهبوا إلى المناطق السفلى سباحة، ومن هناك طلعوا إلى اليابسة.

وبقيت رِجل المسن موي عاجزة منذ ذلك اليوم.

وفي الليلة التالية لمقتل النائب بوشكوفيتش، رأى مالك في حلمه رأسه مقطوعة. ارتعد. خاف هذا الرجل الجريء الذي دخل اسمه أغاني المسلمين

الشعبية. وبقرار مفاجئ، ترك ماله وأملاكه، وأخذ زوجته وأولاده، وهاجر إلى تركيا. وموي أيضاً كانت معه زوجته وأولاده.

حين وطأت المجموعة الكبيرة أرض ميناء اسطنبول، وذابت بعض قطع المجوهرات التي كانوا يحملونها بسرعة غريبة، عرف مالك وموي أول مرة في حياتهما ما يُسمى هم العيش.

انخرط الرجلان في الصراع من أجل الخبز، فلم يفلحا. كانا لا يعرفان غير ركوب الخيل، واستخدام السلاح، ونصب الكمائن، وقطع الرؤوس. أما المدينة فلم تكن تفهم هذا.

هاجرا إلى هذه المدينة الأناضولية الجنوبية المشهورة بمصانعها وحقول القطن فيها. لم يُجدِ كل ما فعلاه. بقيت أيدي حفيدي الأغوات الفاشلين بكل شيء مكبلة. في هذه الحال كان على النساء أن يُجربن حظهن. لم تكن تلك النساء قد اعتدن على غير الضحك والغناء في بساتين الفاكهة ذات الأشجار الكثيفة الظلال المحملة بالثمار والملامسة أغصانها الأرض. وغير التزين والتبختر في المشي، وصرن بدينات من الراحة. وبدأن يقبحن ويذوين بسرعة في أجواء المصانع الرطبة والمحملة بغبار القطن، ورائحة النشاء. حل يوم يحملن فيه مناديلَ، ويسعلن، ويمججن من أفواههن قطعاً كبيرة، ويتمنين من ربهن أن يحسن الختام.

فيما بعد دفنت النساء، واتجه الأولاد إلى المصانع...

وقبل مرور فترة طويلة تعلقت ابنة موي بغجري عازف، وذهبت. أما الصغيرة.. فهي بنت صامتة وذكية. وهي جميلة جداً أيضاً. كان الشباب يلحقونها عند الانصراف، ولكنها لا تعطي وجهاً لأحد.

في منتصف إحدى الليالي، وبعد الساعة الثانية عشرة، ثارت عاصفة، وانهمرت الأمطار... وبينما كانت الأرض تهتز، كانت ابنة موي منكمشة

على نفسها، قادمة من العمل وحدها في أزقة الحي الضيقة. ظهر أمامها بضعة أشخاص، وكمموا فمها بقوة، وأدخلوها في سيارة فورد قديمة كانت تنتظر عند الزاوية، وابتعدوا.

وكان ذهابها ذاك، هو آخر ذهاب...

انقطع موي عن الطعام والشراب، وبقي كالمجنون هائماً على وجهه في الشوارع لأسابيع. وفي أحد الأيام بعد فترة طويلة، تحدث له راعٍ عن جثة نهشت أحشاءها الكلاب، ودق رأسها بالحجر، ففهم كل شيء.

منذ ذلك اليوم والمسن موي شبه مجنون. «غوسله» تحت إبطه دائماً، يعزف، ويغني، ويبكي كما يشاء.

عاد مالك المسن بحضن مليء بالغسيل، وقال: «النعمة تنهمر بقوة كبرى!»

وضع الغسيل في إحدى زوايا الغرفة. ووُضعت الغلاية على النار مرة أخرى، وأُشعلت السجائر.

الغرفة دافئة. والعجوزان يستمعان لشخير صدري. أولاد المسن مالك في عقله.. إنهم في عقله دائماً.. وهو يؤمن بضرورة إنقاذ ولديه من أن يلتهمهما المصنع، ويشعر بقلق من أنه تأخر بهذا الأمر. وإذا لم يحدث هذا، فإن معلم النسيج كما قال المعلم عزت، سيرتكب سوءاً ما، ويضرب الولد، أو يدفع أشخاصاً ما ليضربوه.

نظر إلى موي. كان يهز نفسه بهدوء. بدأ يمعن النظر فيه. ماذا لو اختطفوا جميلة ذات يوم كما فعلوا مع ابنة موي؟.. فهذا العالم عالم على هذا النحو...

في إحدى اللحظات، تقابل نظره بنظرات موي. كانا كأنهما يتكلمان بنظريهما. سمع سعال موسى الأجش يتناهى من الأعلى، وهذى ببعض الأمور، وانقلب من طرف إلى طرف.

في هذه الأثناء بالضبط، هذت جميلة بأمور ما: «دخلك، خذي هذه.. سيسمع أبي!»

تبادل المسنان النظر بشك. توصلا إلى قناعة بأن خطراً ما يجول حول رأسي الولدين فوراً..

«أنا خائف، خائف يا موي. قلبي يرتجف... هناك شيء ما يدور حول الولدين. إنهما يخفيان عني شيئاً، هناك شيء يخفيانه عني.»

«لا يا عزيزي، يتهيأ لك. ليس هناك أي شيء بإذن الله...»

«لا أعرف، أنا خائف. ما إن يذهبا إلى النوم، حتى يطير النوم من عيني. أعدّ الاثنتي عشرة ساعة.. اثنتا عشرة ساعة بدقائقها! كأن خبراً ما سيأتي... خبر مؤلم، خبر موت، خبر حادث، لا أدري، سيأتي خبر شؤم... أنا خائف.»

«لا تزعج نفسك، لن يحدث شيء...»

«أقرأ، وأنفخ عليهما... وأدعو لهما في الصلاة... ولكن رغم هذا...»

«لن يحدث شيء إن شاء الله...»

شردت عيناه في الموقد. تذكر ما هذى به صدري نهاراً، وكلمات المعلم عزت... قال: «إن ذلك السافل يضغط على ابني، ولعله يضربه... سيجعلونني أسفك دماً بعد هذا العمر...» ثم أبرقت عيناه بشكل وحشي: «بحق اسم الله يا موي، سأقتلع كبد من يمس شعرة من شعر أولادي!»

ارتعد المسن موي. فجأة وجد أمامه مالكاً الذي كان يعرفه قبل سنوات طويلة. حدث فجأة تغيير في قلبه، وململة. وبعدها طفحٌ، وانفعال...

تناول «غوسله» من جانبه، وبدأ يعزف وعيناه على وجه صديقه مالك الذي لم يفقد فظاعته حتى تلك اللحظة. ارتفع الصوت تدريجياً حتى غطى الغرفة، وملأها، وفاض عنها، وانتشر إلى الغرف العلوية، والأطراف، والصحن كله، والبيت كله، والحي كله. وغاب موي عن وعيه مرة أخرى وقد تبللت رموش عينيه.

صار في بلده. كانوا منتصبي الظهور على بغالهم الشبعانة. وبينما كانوا يستمعون لما يحكيه لهم أهل القصبة، كان صدغ كل منهم يرتجف من الحقد. تجلت الرؤوس التي قطعوها أمام أعينهم. كانت البغال القوية تحتهم تنهش الأرض بحوافرها متململة. ولكزوا ركاب خيولهم بشكل مفاجئ، وغابوا في الظلام.

في صوت الغوسلي حقد وثأر لم يؤخذ!

في صوت الغوسلي حسرة!

في صوت الغوسلي نداء حزين لأحباء فقدوا!..

في صوت الغوسلي...

لم ينتبها لفتح الباب بهدوء، ودخول عدة أشخاص.

عدة أشخاص آخرون أيضاً، وبعد ذلك، امتلأت الغرفة، وطفحت.

مازال موي المسن يعزف، ويتحدث الغوسلي مع صوته الرائع عن الغابات والوديان والأدغال وضوء القمر والعشاق والحسرة. الغوسلي يصرخ، ويئن، ويكز على أسنانه، ويعلن الحداد، ويفرح. في صوت الغوسلي شمس وليل وعاصفة وزوابع وثلج، وفيه الأمس واليوم، وفيه الحزن والعناد، وفيه البؤس.

بينما كانت قطرات المطر الغزير التي تنثرها الريح القوية تسوط زجاج النافذة، وفي الساعة العاشرة والنصف ليلاً، كان الحي كله يستمع لغوسلي موي المسن. تحول الحي كله إلى آذان صاغية. انتزع لحم الحي عن عظمه، وانسل من فظاعة الطرق الطينية التي سينطلق بها أهله بعد قليل، ونصبوا هوائياتهم وهم يستمعون لغوسلي موي، ويبكون.

في تلك اللحظة انطلق صوت الساعات المنبهة في الحي كلها معاً، فصَمَتَ غوسلي موي. صحا الحي على نفسه، وبدأت الحركة. بدأت النوافذ المظلمة تُنار، وتعالت أصوات الناس.

انتبه مالك المسن للمعلم عزت بين الجمع الذي ملأ الغرفة متأخراً قليلاً، فطلب منه أن يصعد إلى الأعلى.

قال له: «خير، سأذهب لأنام. أنت تعزف بشكل جميل جداً يا عم موي، عشت، وسلمت يداك، ودمت لنا!»

لم يسمع المسن موي.

عاد المعلم عزت إلى غرفته، وهو مازال منفعلاً.

***

لكز مالك المسن الصبي أولاً: «صدري، أووو.. صدري!»

كان نوم الصبي ثقيلاً جداً. تمتم بكلمات غير مفهومة.

«صدري.. أووو.. صدري!»

انقلب صدري من جنب إلى جنب.

كانت جميلة قد استيقظت، وقفزت من الفراش. ارتدت صدارتها السوداء بسرعة، ووضعت غطاء رأسها.

كان إبريق الشاي يغلي على طرف الموقد. فتحت جميلة قماش السفرة على الأرض، وقسمت الخبز، ووضعت سكراً في الكؤوس.

استيقظ صدري بصعوبة، ونهض بصعوبة أيضاً، تمطى، وتثاءب، وتثاءب مرة أخرى. لبس بعد ذلك جواربه، وفرك عينيه. وجلس إلى المائدة.

قالت جميلة: «صار عليك أن تستيقظ!»

نظر صدري إليها بامتعاض.

قرع السقف من الأعلى. سُمع صوت موسى من الأعلى: «هل استيقظ الصبي الكبير؟»

لم يجب أحد. نخرت جميلة، وقطبت حاجبيها.

كان الولدان يتناولان إفطارهما المكون من خبز وشاي وزيتون أسود دون رغبة. كانت جميلة تبدو أكثر شهية مقارنة بصدري. تقضم الخبز بأسنانها البيضاء المصفوفة بانتظام، وبعد أن تضع زيتونة في فمها، ترتشف الشاي مصدرة صوتاً.

كانت جميلة قد قلبت كأس الشاي الثاني قبل أن ينهي صدري الأول. ومسحت بطرف قماش السفرة فمها، وانسحبت.

وما إن أنهى صدري كأس الشاي، حتى قرع السقف مرة أخرى: «أيها الصبي ا لكبير، هل أنت جاهز؟»

«أنا جاهز يا موسى، أنا جاهز!»

نزل السلم، وارتدى بوطه. كان حي العمال جاهزاً ليكون على رأس عمله.

فتح صدري الباب. ملأ الغرفة ريح بارد. وكان المطر الغزير يهطل على الصحن. ومع فتح الأبواب على يمين الصحن ويساره، وإغلاقها كانت قطع الضوء الأصفر تملأ الظلام القذر، ويُنار الطين.

لبست جميلة حذاءها المطاطي الأبيض، وخرجت خلف أخيها. كان والدهما يمسك المصباح، وينير لهما طريقهما.

تجمع الرجال والنساء والأولاد تحت شرفة موسى التي تحجب المطر. كان المتجمعون صاخبين ومتململين.

سأل أحدهم: «هل نحن جاهزون؟»

ارتفعت أصوات: «جاهزون.. جاهزون.. جاهزون!»

قال موسى: «بخطوات متوازنة، انطلقوا!!!»

سار جمع العمال رجالاً ونساء وأطفالاً تحت قطرات المطر السخي المدرار نحو باب الصحن. قال مالك المسن باللغة البوسنية وهو ممسك بالمصباح: «الله يقويكم!»

خرجوا. وحجم الزحام يزداد كل دقيقة وكلما اندلقت تجمعات من صحون بيوت أخرى وهو ينطلق في الطريق.

كانت الريح الشمالية الغربية الحادة تهب قوية، والرجال يمشون في المقدمة، ومن خلفهم النساء بأغطية رؤوسهن البيضاء. كان صراخهم يعلو في أثناء سيرهم في الطريق المتعرجة، وهم يغطون في الطين، ويخرجون. وعندما ينـزلون منحدراً زلقاً تنـزلق أقدام، ويتدحرج البعض. وحينئذ تنطلق كلمات: «هيش.. أوه..»، ثم تتعالى الضحكات.

وكانت جميلة خلف الجميع. على جانبها هذا حليمة، وعلى ذاك غوللو.

سألت جميلة: «ماذا حدث للبنت (صويقا)؟»

قالت غوللو: «من؟»

«البنت السمراء...»

«لا أدري.. كان أخي يتزقم هناك أيضاً...»

مر الجمع بجانب بستان. وعلى يمينهم خندق مليء بالماء. ويسيرون فرادى في الطريق الضيق، والتراب اللزج ينـزلق تحت أقدامهم.

مشت جميلة خلف غوللو، وحليمة خلف جميلة. فجأة انزلقت قدم جميلة. غطت بالخندق الكائن على اليمين حتى خصرها. وقد حدث هذا بصورة مفاجئة إلى حد أن سقوطها في الخندق، ونهوضها حدث في لحظة واحدة. خرجت مبتلة.

شتمت مثل رجل: «الله يلعن حياة كهذه، الله يلعنها»

قالوا: «آمين!»

مسحت جميلة يديها بطرف صدارتها السوداء، وكان طريق الحي الخرب ينتهي بعد عشرين متراً، وبعد ساحة واسعة، يبدأ شارع مرصوف.

عبروا الساحة وهم يغطسون في بحرات الماء في الساحة. أولاد الحي يلعبون كرة القدم في هذه الساحة، ويلقي الذين يلعبون القمار النرد، ويفتحون الثلاث ورقات، ويمصون قصب السكر، ويلعب أولاد المدارس نوعاً من القمار بأن يكتبوا على أوراق الشكولا أرقاماً. ولحظة دخولهم الساحة صفعتهم ريح شمالية غربية حادة وقوية، فتعالت أصوات: «آه»..

كادت جميلة تتجمد وسط ثيابها الرطبة.

صرخت: «يا ربي دخلك!»

رد عليها الرجال: «قولي يا الله يا ابنتي، قولي يا الله، ليبعث لك حظاً.»

قال آخر: «عيب، عيب! أنتم عمال كالحديد. هل يمكن أن تتأثروا بالبرد؟»

سأل موسى النساج: «يا شباب، هل تعرفون سبب هذا البرد؟»

«ما سببه؟»

«لعدم وجود الحر!»

«حكى بدري!»

شتم موسى. صاح أحدهم: «طز»، وهرب. لحق به موسى. بدأت ملاحقة وسط الطين. وضحك، وقهقهات، وصرخات «إيه»... ولحظة غدت الصرخات والقهقهات والآهات جنونية كان الطريق الطيني على وشك الانتهاء. سمع صوت سيارة يدور محركها في الزقاق المظلم على اليسار. وبعده صفرة قوية. هدأت القهقهات والتأوهات.

عندما أطلق الصفير مرة أخرى، سأل موسى نفسه: «ما هذا؟»

نادى صدري: «جميلة!»

كانت جميلة بين حليمة وغوللو، وأمسكت بذراعي صديقتيها بقوة: «أنا هنا يا أخي.»

مع الصفير الثالث، ارتفع صوت هدير المحرك، ومرت من أمامهم سيارة فورد سوداء موديل 1927 ببطء.

وقف العمال. انتظروا مرور الفورد. ولكن الفورد توقفت بدل أن تمر، وأغلقت الطريق الذي سيدخله العمال تماماً.

قال موسى: «إيه، ماذا سيحدث؟»

رد عليه شخص متوتر من السيارة: «سيحدث بدين أمك!»

«دين أمك أنت.»

«اخرس ولاه.. سأدوخك إذا نزلت!»

عرف صدري صوت العين الزجاجية، فذهب إلى جانب أخته فوراً: «هل أنت خائفة؟»

«لست خائفة. ممن سأخاف؟»

قال غوللو: «ولكنك ترتجفين!»

«من غضبي، يقول لي عقلي...»

قالت حليمة: «امشي يا أختي، امشي.»

عبروا من خلف السيارة بصعوبة. كان يُسمع صوت موسى الغاضب من الخلف.

قال جميلة: «الله لا يجعل موسى يشاجرهم!»

قال صدري: «امشي أنت.» ودفعها من الخلف.

غضبت جميلة: «أنا أمشي ياه.. لماذا تدفع؟»

«لا تبدئي مرة أخرى...»

«سأبدأ طبعاً.. الرجل يدافع عنا. ألن أفكر فيه؟»

«يا هذه، الأصدقاء كلهم معه. وهل يتركونه وحده؟»

كانت الفورد تسير خلفهم ببطء. فحثوا خطاهم.

قال موسى بعد أن اقترب من صدري: «أنت منتبه ياه!»

تخلف صدري قليلاً: «إنه صادق العين الزجاجية، أليس كذلك؟»

«طبعاً...»

«من الآخرون؟»

«لم أستطع معرفتهم في الظلام... ولكنني عرفت صادق العين الزجاجية جيداً.»

«آه، ماذا أقول لأبي ذاك؟»

«لماذا؟»

«وهل في هذا الأمر لماذا يا هذا؟ ليعطها للكاتب، وننتهي من هذا الأمر.»

«طبعاً يا عزيزي. انتظارها خطأ. لو لم نكن موجودين، لخطفوها.»

«بالتأكيد...»

«هل أقول لك شيئاً يا صدري؟ أنا سأكلم الكاتب. ما رأيك؟»

«ماذا ستقول؟»

«سأقول له: يا صديقي، أرسل أحداً، واطلب البنت. وأسرع بالأمر!»

«نعم؟»

«سأقول له إنهم سيخطفونها.»

لم يجب صدري. كان صوت أنين المصنع ينبعث من جوف الليل.

كرر موسى القول: «سأكلمه يا صديقي. إذا لم يخطفوها اليوم، فغداً سيخطفونها، وإذا لم يخطفوها غداً، فسيخطفونها بعد غد. ألا تعرف ابنة موي؟ أنا أكلمه، ولينته هذا الأمر. على الأقل أشرب عرقاً حتى أرتوي في عرسهما.»

ضحك صدري بلا طعم، وقال: «أنا راض من الأمس يا صديقي. الجو مناسب بالنسبة إلي. أنا أسمع كل يوم من كوم كلاب كلاماً بسببها، ما الذي يضطرني لهذا؟ أليس كذلك؟»

عندما انعطفوا من الزاوية الأخيرة، شوهد المصنع وسط الأضواء. الدخان المنطلق من مدخنته الغليظة الممتدة وسط الظلام تبدده الريح الشمالية الغربية الحادة.

18

قال نجاتي الخارج من البار مترنحاً في الثانية بعد منتصف الليل لصديقه القصير القامة: «سأذهب إلى المصنع!»

كان هذا الصديق ابن النقيب السابق الذي باع كل ما لدى أمه، وأنفقه في البارات يحب نجاتي كثيراً.

«ماذا يوجد في المصنع؟»

«أتقول ماذا يوجد؟ مع أنك أقرب صديق إلي.. ألا تعرف؟»

«ها، تلك القضية.. البنت البوسنية، أليس كذلك؟»

«طبعاً..»

«هل هي في المصنع الآن؟»

«يجب أن تكون على رأس عملها منذ ساعتين. يبدو لي أنني أستطيع أن أكلمها ورأسي بهذا الوضع.»

«أنت خجول جداً. إنها مجرد فتاة عاملة. ما الذي يمنعك من الكلام معها؟ مَ تخجل؟»

«أسفي عليك...»

«لماذا؟»

«أنت أيضاً تتكلم مثل جدتي. وهي أيضاً تقلب شفتيها، وتقول فتاة عاملة.»

«هل أحزنك هذا؟»

«أحزنني طبعاً.»

«أنا آسف إذن يا صديقي.»

وعانق نجاتي، وقبله من خديه.

«هل عفوت عني؟»

«بشرط ألا تتكلم بهذه الطريقة.»

عبرا الشارع الرطب. كان شارع المدينة الأوسع هذا خاوياً تماماً. أطفئت غالبية الأنوار. تنطلق صفارات الحراس من بعيد... بعد قليل عبرت سيارتان تفيضان بضحكات سكرانة حاملة فتيات بار ملونات بالأحمر والأخضر والبنفسجي.

انفصل الكاتب نجاتي عن صديقه عند زاوية، وانطلق في طريق المصنع. كانت رأسه تؤلمه. تعرف مرة أخرى على عدد من السكارى في البار. وشرب العديد من المشروبات التي يعرف أسماءها ولا يعرف طعمها.. لم يشرب تلك المشروبات برغبته، بل بضغط الأشخاص الذين تعرف إليهم، أو على الأصح عُرف بهم حديثاً.. مع أنه لم يعد يحب البار، والأصدقاء الذين يتعرف إليهم، ويغدو صديقاً حميماً لهم لعدة ساعات ثم ينساهم، ولا يستطيع أن يحب هذا. ما كان يريده هو أن يتزوج من جميلة، ويؤسس عائلة بعيدة عن كل أنواع المشروب والتفاهات. وأن تودعه زوجته عند الباب وهو خارج صباحاً، وأن تستقبله عند الباب مساء عند الانصراف. بيت صغير، وامرأة نظيفة وبريئة، واهتمام، وحب من تلك المرأة النظيفة..

وقف أمام باب المصنع الحديدي المغلق بإحكام. لم يكن لديه أي عمل في المصنع في تلك الساعة، ولا يمكن أن يكون. ورغم معرفته جيداً بأن الآخرين مثل رجال معلم قسم الغزل سيدركون هذا، ويوصلونه صباحاً لمعلمهم، فلم يكن مبالياً. فقد دعمه صاحب المصنع السيد نعمان شريف بشكل واضح، ووقف إلى جانبه رغماً عن شريكه قدري آغا.

لكم الباب الحديدي. عندما لكمه للمرة الثانية، فُتح. قال البواب البوسني: «أوه.. صهرنا! أهلاً وسهلاً بك.»

كان يرفع الكلفة دائماً مع البوابين والعمال، ويُسر لممازحتهم والحديث معهم، فقال: «أهلاً بك.» ودخل.

«خير إن شاء الله في هذه الساعة من الليل؟»

«لا شيء. لدي قليل من الشغل..»

غمز البواب بعينه: «شغل ماذا؟»

ضحك نجاتي فقط.

دخل بعد ذلك إلى غرفة البواب، ودخنا معاً سيجارتين. ولكن رأس نجاتي كانت تؤلمه بشدة. تناول المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار، ونظر إلى وجهه. كانت لحيته محلوقة تواً، وكان خداه مكتنزين، وحمراوين.. وشعره المفروق على جنب مدهوناً بالبريانتين، وشارباه مدببي الرأسين... وسالفاه طويلين. أخرج لسانه، ونظر إليه. كان لساناً مبنيًا عليه طبقة من الفطور.

وبينما كان يعلق المرآة في مكانها، قال: «رأسي تؤلمني بشدة!»

نصحه البواب: «ابتلع حبة أسبرين.» وكانت السجائر تُدخن بصمت. قال له البواب في إحدى الأثناء: «التي لك في الداخل!»

«من هي التي لي؟»

«لا تقل هذا يا سيد نجاتي...»

«حقيقة من؟ من هي التي لي؟»

«هل تمزح معي؟»

ضحك نجاتي.

قال البواب: «أنت تعرف والدها. ألا تعرفه؟»

«أعرفه...»

«إنه أب حقيقي. وأربعة وعشرون قيراطاً!»

وبدأ.. فقد استمع كثيراً عن حميه من هنا وهناك. فهو لم يحب الفتاة لأصالتها، أو هذا وذاك. كان موظفاً صغيراً، والراتب الذي يتقاضاه صغيراً جداً. وأراد فتاة تكتفي بهذا الراتب الصغير. لا تخلو عائلته من فتيات غنيات. وكان يمكنه أن يأخذ واحدة منهن. ولكنه لم يرغب بهذا في أي وقت.

نهض، وخرج من الغرفة. كان متردداً بالدخول إلى صالة الغزل. فقد حفر في قلبه أثر طرده من الصالة. كان يعتقد بأن الفتيات سيتذكرن هذا، ويضحكن، ويسخرن منه. ورغم هذا توجه نحو صالة الغزل.

بينما كان يمر من أمام صالة الغزل وقف بجانبه رجل بدين وقصير، وشاب طويل ونحيل. كان الشاب الطويل والنحيل ممتقعاً بالحمرة. أخيراً افترقا، ودخل إلى صالة الغزل.

قال الآخر: «يا صديقي. أنا صاحب بيت جميلة. أريد أن أتكلم معك قليلاً.»

نظر نجاتي مندهشاً.

«بماذا سنتكلم؟»

«اسمي موسى. لندخل إلى فسحة الموضأ، وندخن سيجارة...»

سر نجاتي لحال موسى الحنونة: «هيا لنذهب.»

دخلا إلى فسحة التواليتات التي تهدر كخلية النحل.

أخرج موسى علبة سجائره، وضيفه واحدة، ثم قال له: «أنا مجرد مراسل يا صديقي، ولا أجيد العبارات المهذبة، فلا تؤاخذني. كان بجانبي قبل قليل ولد ناعم ياه، إنه شقيق جميلة الأكبر. اسمه صدري. طلبت منه أن يأتي، فلم يقبل. خجل. إنه غر. ولكنه يحبك كثيراً. لولا والده، ولو كان الأمر له، لأعطاك أخته فوراً، ولن يضع أي شروط.»

سُر الكاتب نجاتي كثيراً من النساج موسى..

قال له: «لنجلس القرفصاء يا صديقي!»

جلسا، وأسندا ظهريهما إلى الجدار.

«غير هذا؟»

«غير هذا، سلامتك. إليك مني نصيحة أخوية. إذا كنت تحب هذه الفتاة بشكل جدي، وتريد أن تؤسس أسرة، فعليك أن تُسرع، ولا تتردد، واطلب البنت بسرعة. وإلا...»

اضطرب نجاتي: «وإلا؟»

«هناك بلاء يحوم حول رأس البنت...»

«مثل ماذا؟»

حكى له موسى النساج عن حادثة السيارة التي اعترضت طريقهم في أثناء مجيئهم إلى العمل ليلاً مبالغاً مائة ضعف. ارتبك نجاتي بكل معنى الكلمة. حملقت عيناه. وبدأت يداه ترتجفان.

«من؟ من هؤلاء؟»

«من سيكونون؟.. صادق العين الزجاجية من صالة النسيج عندنا وجماعته.»

«يعني الفلاحين؟»

«ليس من أجلهم أساساً. هناك خليل ياه، الجمال خليل الأنكش...»

«إيه؟»

«من أجله. الرجل غني جداً، وهو يصب عليهم النقود. لهذا عليك أن تُسرع يا صديقي...»

جن جنون نجاتي. أشعل سيجارة أخرى. غضب فجأة من جدته كثيراً. كم مرة توسل إليها لكي تذهب لرؤية الفتاة، وتطلبها من أبيها. وفي كل مرة كانت تصرفه قائلة: «أنت ابن سيد، وهل يليق بك أن تتزوج فتاة عاملة عادية؟ إذا لم يكن لديك كرامة، فلأبيك كرامة، كيف أنظر إلى وجوه الناس والعالم فيما بعد؟ أنا لا أدخل في أمر كهذا.» وهو يعرف أن هذا الأمر لا يمكن أن يُحل دون تدخل جدته، وإلا ذهب إلى والدها، وطلبها بنفسه، ولكن...

شرد. قال له موسى فجأة: «ها هي التي لك تذهب!»

نظر إليه نجاتي. كانت تتجه إلى صنابير المياه المقابلة له وهي ترتدي صدارتها السوداء، وتضع غطاء رأس أبيض. كان معها صديقتان لها.

رمى السيجارة من بيده، وقفز. حين وصل إلى الفتيات، توقف. اسودت عيناه، ودار رأسه. كان خلف الفتيات مباشرة، ولكنهن لم يكن منتبهات له. شعر نجاتي بالندم. ولحظة عزمه على العودة، التفتت فتاته، وتقابلت عيونهما للحظة. تهربت البنت بشهقة خفيفة، وأغلقت فمها بطرف غطاء رأسها. انتبهت الفتاتان المجاورتان لجميلة للأمر.

قالت غوللو المنضّدة المحفرة الوجه قليلاً: «لا يمكنكما أن تتكلما هنا، سيرونكما!»

تلعثم نجاتي قائلاً: «أريد أن أسأل سؤالاً.»

«ماذا ستسأل؟»

«سأرسل من يطلبها من أبيها باسمي. ما رأيها؟..»

قالت غوللو: «أجيبي يا بنت!»

ضحكت جميلة.

ألحت عليها غوللو: «أجيبي يا بنت، خنـزيرة!»

التفت جميلة، وردت محتدة: «طالما أنك تنوي على هذا، فماذا تنتظر؟»

قالت غوللو: «إذا لم تسرع، فليس لنا علاقة فيما سيحصل!»

قالت جميلة: «ماذا سيحدث؟»

«هل نسيت ما حصل في الليل؟ السيارة؟»

هزت جميلة كتفها: «أنا لا أخاف من أحد» واتجهت نحو صالة الغزل. ولحقت بها حليمة. قالت غوللو من خلفهما: «أنا أخت المعلم عزت، الأفضل أن تتكلم معه. والد جميلة لا يرفض طلباً لأخي. مفهوم؟» وركضت خلف جميلة.

سأل موسى وكان ينتظر جانباً: «هل تكلمت معها؟»

قال نجاتي: «تكلمت؟»

«ماذا قررتما؟»

«إحدى تلك الفتيات أخت المعلم عزت...»

«نعم.. غوللو.. ماذا قالت؟»

«قالت إن أخيها الكبير يكلم والد جميلة.»

«هه.. هذا معقول. حسنٌ. مالك آغا يحب المعلم عزت كعينه، ولا يرد له طلباً. هيا، أنا ذاهب.»

اتجه موسى نحو صالة النسيج. كان صدري ينتظر أمام باب صالة النسيج. قال: «ماذا حدث؟»

قال موسى: «من يستطيع أن يمسنا يا هذا؟»

«هل كلمته؟»

«انظر إلى هذا انظر... ولكنه شاب جيد يا صديقي، إنه شهم حتى النخاع.»

«لماذا؟»

«قلت له تعال لنشرب سيجارة، قال هيا، دخل معي فسحة دورة المياه. لو كان الموظفون الآخرون...»

دخلا إلى صالة النسيج.

19

عندما فتحت البنت السمراء عينيها، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحاً. كان المعلم عزت يقرأ كتاباً، وحين رأى البنت السمراء قد استيقظت، قال لها: «صباح الخير!»

استغربت البنت السمراء كل شيء بداية. نظرت إلى ما حولها مندهشة: «من جلبني إلى هنا؟»

شرح لها المعلم عزت باختصار.

قالت البنت السمراء: «بسم الله الرحمن الرحيم.» ثم تذكرت كل شيء.

كانت تنظر إلى المعلم عزت خجولة: «هل نمتُ هنا منذ عصر يوم البارحة؟»

«طبعاً..»

«هل كنت هنا طوال الليل؟»

«نعم.»

«واه مما حدث لي...»

«لماذا؟ ماذا حدث؟»

«لا شيء...»

نهضت مرتبكة، وهندمت نفسها. كانت تنوي الذهاب فوراً.

قال المعلم عزت: «لا يمكن. لا يمكنك الذهاب قبل أن تتناولي إفطارك.»

«إن شاء الله دائم يا معلم عزت. لم أستطع الذهاب إلى العمل أيضاً. تفوه، هل هذا ممكن ياه؟ لماذا لم توقظني؟»

«حاولت لم أستطع. كنت سكرانة جداً.»

نهض، وجلب خبزاً وجبناً وشاياً. كانت البنت السمراء تشعر بالضيق نتيجة هذا الاهتمام الذي لم تره من أحد حتى الآن، وهي نادمة على ما فعلته. وضع المعلم عزت صينية الإفطار أمامها، وابتعد عنها قليلاً، وفتح كتابه.

قالت البنت السمراء: «يا معلم، ما أكثر الكتب عندك!»

«هكذا إذن؟»

«لماذا لا تشتري مكتبة؟»

ضحك المعلم عزت طويلاً.

«حقيقة، لماذا لا تشتري؟ أليس هذا مريحاً أكثر؟ واجلس وراء طاولة صيفاً وشتاء، أوه...»

«إنهم لا يدعوننا، لا يدعوننا نرتاح يا أختي؟»

«طالما أنهم لا يدعونك، فلماذا تقرأ؟ أليس مؤسفاً على عينيك؟ إذا لم تكن كاتباً...»

وجد المعلم عزت أنه من المناسب ألا يجيب.

دققت به الفتاة السمراء بطرف عينها طويلاً، ثم مسحت فمها بطرف قماش المائدة، وقالت: «إن شاء الله دائم يا معلم عزت. الله لا يريك هم الحرمان.»

«صحة وعافية. هل شبعت؟»

«الحمد لله، شبعت.» نهضت، وارتدت حذاءها. «أستودعك الله يا معلم.»

«مع السلامة يا أختي. زورينا مرة أخرى. هذا المكان ليس غريباً عنك.»

«الله لا يحرمنا إياك.»

خرجت، وأغلقت الباب خلفها. ليقل الناس ما يريدون، فقد أعجبها هذا الرجل كثيراً. وإذا كان قد خطر ببالها ما إذا كان الرجل قد اقترب منها ليلاً، فهي لم تضع احتمالاً لهذا. كانت تؤمن بأن المعلم عزت لا يفعل أمراً كهذا. ذهبت إلى دكان بائع الكباب. كان صادق العين الزجاجية جالساً وحده، ويشرب. عندما رأى البنت السمراء، قال: «أين أنت يا كافرة ابنة الكفار، أين أنت؟»

«لا تسأل يا ابن خالي، سكرت، وانهرت في مكاني.» ودخلت، وسحبت كرسياً، وجلست.

قال صادق العين الزجاجية: «خربنا كل شيء. أترين نفسك أنت، أترين، والله يجب ذبحك من رقبتك بسكين مثلمة...»

«ماذا أفعل يا أخي، غبت عن وعيي. طالما أننا قررنا على أمر، هل تشربونني إلى هذا الحد؟ ضغطتم علي كثيراً.»

«كنا نعتقد أنك كالرجال، من أدري.»

«أنا كالرجال. ومازلت مثل الرجال، ولكن...»

«إيه؟»

«لا أدري إن كان النبيذ مخلوطاً بالأفيون.. أسكرني.» وحكت له ما حدث.

طار صواب صادق العين الزجاجية: «هذا يعني أنك بتِّ في بيت عزت؟»

«فتحت عيني صباحاً، وعلى ماذا أفتحهما؟ الساعة الثامنة. كان المعلم عزت يقرأ كتاباً. فكرت ولاه... يا صادق إنكم تحكون بحق الرجل، ولكنه شهم حتى النخاع!»

«روحي من هنا ولاه.. تقول شهماً. أنزل بشهامته أيضاً... يبدو أنه جاملك أكثر من اللازم؟ رتبنا الأمور تماماً مساء، وقطعنا الطريق، أطلقنا صفيراً، ثم صفيراً آخر.. نحن موعودون بأن تعطينا أختنا إشارة.»

«ماذا أفعل يا صديقي، قلت لك إنني سكرت. أين خليل؟»

«ذهب.»

«إلى القرية؟»

«إلى القرية، ولكنه سيعود بعد عدة أيام. لم تنته أيام الله ياه. هذه المرة وقعنا في حفرة، فلنجرب أختنا برأس صاح. كيف؟»

فكرت الفتاة السمراء قليلاً. خطر ببالها المعلم عزت. لم تجب.

سأل صادق العين الزجاجية: «لماذا لا تجيبين؟»

«والله ماذا أقول يا أخي؟»

«لا تكوني خائفة؟»

«لست خائفة، ولكن...»

«لستِ خائفة، ولكن ماذا؟»

«البنت لا تحب خليلاً...»

«مفهوم، لعبوا بعقلك... أرجو ألا يكون ذلك الديوث المعلم عزت هو الذي لعب بعقلك؟»

«لا يمكن لأحد أن يلعب بعقلي. ألست إنسانة؟ أليس لي عقل؟»

«حاشى يا أختي، أستغفر الله... ولكنك كنت موافقة البارحة. وتغير الجو اليوم.»

لم تجب الفتاة السمراء.

صفق صادق العين الزجاجية، فجاء النادل راكضاً.

«انظر ماذا تريد الأخت! هل تشربين كأساً صغيراً؟»

قالت الفتاة السمراء: «لا يا أبانا لا، مازالت معدتي تتخبط. لا أشرب. نزلت منهارة من السكر...»

«كلي كباباً!»

«إيه آكل واحد كباب لأجل خاطرك.»

انسحب النادل.

قال صادق العين الزجاجية: «أنت لا تبالين حقيقة يعني؟»

«لماذا؟»

«لأمر جميلة؟»

«لا أدري يا صادق، هل ينتهي هذا الأمر على خير، أم على شر؟ وهناك سجن في نهاية هذا الأمر!»

«يا هذه، الأمور بالنسبة لك على ما يرام. نحن سنصفر، وأنت ستكحين.. ولا تتدخلي بغير هذا... الرجل يدفع نقوداً يا هذه... لا تكوني غبية يا أختي. ثلاث قطع من فئة العشرة مثل الفتيات الجميلات لك.»

تجلت قطع العشرات الحمراء في عقل البنت السمراء. كانت العشرات تفتح، وتغلق. وهي حيوية، وصاحبة قدرة إلى حد أن المعلم عزت وطيبه بدأ يمحى تدريجياً. وعندما أكلت كبابها، وأنهته، عادت البنت السمراء القديمة.

سألها صادق العين الزجاجية: «كيف، هل اتفقنا؟»

أجابت: «لنر، إذا كان هناك نصيب..»

عاد السرور إلى صادق العين الزجاجية لأنه فهم بأن هذا يعني الموافقة. صرخ قائلاً: «عشتِ يا أختي! أخت من أنت! يا بني النادل، هات لنا زجاجة...»

شربت البنت السمراء كأساً من زجاجة النبيذ المجلوبة حديثاً، ثم نهضت.

«إلى أين؟»

«لأذهب إلى المصنع.»

«قابلي البنت. وتصرفي كما تعرفين، وادخلي عقلها. أنت تعرفين؟»

«دع هذا لي. أنت تعرف أختك قليلاً...» وخرجت من دكان بائع الكباب.

كانت الساعة تقترب من التاسعة. سينصرف الناس في الحادية عشرة. ورغم هذا، فقد فتحت خطواتها لكي تقابل جميلة، وتعتذر منها، وتدخل إلى عقلها.

***

قال المعلم الكبير البطن الذي قابل البنت السمراء عند الباب: «ما شاء الله يا حضرة السيدة، أين وصلت بك الأحوال؟»

ضحكت البنت السمراء: «إلى باب المصنع!»

«أين كنت؟»

«تحت غطائي.»

«دعي المزاح، أين كنت حقيقة؟»

«لا تسأل، شربت مع ابن خالي، وأفرطت قليلاً...»

«كذابة.»

«هل أنا كذابة؟ ليكن الكذاب أرذل منك!» وضحكت مقهقهة.

قال المعلم: «اذهبي إلى غرفتي، أنا قادم.»

«لا يا أبي لا، ليس لي شغل في غرفتك...»

«اذهبي بجد، سأقول لك شيئاً.»

«قله هنا!»

«اذهبي يا بنت، لا تغضبيني!»

«لدي شغل، لا أستطيع الذهاب. ثم ألست مقاطعني؟» وسارت.

رأت جميلة البنت السمراء قادمة نحوها، فقالت: «إنها قادمة!»

نظرت حليمة المجاورة لها، وقالت: «وسخة، ونجسة...»

نظرت غوللو أيضاً، وقالت: «لا تعطها وجهاً!»

«أي وجه لها...»

اندست البنت السمراء بجميلة وهي تضحك بوقاحة، وقالت: «دخلك يا أختي، أنا لا أستطيع النظر إلى وجوهكم والله. سامحوني. ما تلك الحال التي كانت لي، أليس كذلك؟

لم تجب جميلة. قطبت حاجبيها، وكانت مشغولة بعملها.

سألت البنت السمراء: «لا تكوني مقاطعة لي؟»

قالت غوللو: «طبعاً مقاطعة لك.»

«لماذا؟ ماذا فعلت لها أنا؟»

«ماذا ستفعلين أكثر من هذا؟»

«أنا لا أعرف ماذا فعلت. إذا كنت قد ارتكبت خطأ، أو اقترفت ذنباً، فأخبرنني!»

قالت جميلة: «مهما يكن، لا تطلن الأمر! إذا تكلمت معي مرة أخرى، أو سمعتني كلاماً، أو جئت إلي، فسأعرف ما سأفعله...»

نظرت البنت السمراء بغضب. كان يمكنها أن تقفز فوق جميلة، وتلف شعرها على يدها، ولكن ثلاث العشرات، ثلاث العشرات الحمراء في عقلها.. فأخذت الأمر على محمل المزاح: «يا هذه... كم أنت غاضبة يا هذه! هذا يعني أن ما فعلته كان كبيراً! واخ يا أختي، واخ! كسر الله رجلي، وربط لساني...»

وانسلت من هناك بهدوء.

قالت جميلة: «قذرة سافلة!»

قالت غوللو: «لديها عمل قذر مرة أخرى. وإلا فإنها لم تكن تفوت تلك الكلمات. ولكنك احذري يا جميلة... أليس كذلك؟»

قالت جميلة: «صحيح...»

أطرقن برؤوسهن، وانكببن على عملهن.

20

حين رجعت جميلة من العمل ظهراً كان والدها يحلق ذقن بوسني فقير. لو كانت يداه مغطتان بالدم، فقد كان ينظر إلى ابنته، ويبتسم لها، ويسمعها كلاماً جميلاً. لم يغب عدم اهتمام والدها هذا بها. صعدت بهدوء. خلعت غطاء رأسها وصدارتها المغبرة وهي تشعر بالذنب. من الواضح أن أباها لم

يطبخ اليوم. كانت تستقبلها رائحة طعام ذكية حين تدخل إلى الغرفة كل يوم، وهذا ما يفتح شهيتها.

انتهت الحلاقة. وبينما كان البوسني خارجاً وهو يشكر كثيراً، دخل صدري إلى الغرفة. فقال لها لمجرد أن يتكلم: «لم أنتظرك اليوم، فهل أنت مسرورة؟»

لم تنظر إليه جميلة.

غسل مالك المسن وعاء الحلاقة، ومسح حجر المسن، ومسن الجلد، والموسى بشكل جيد، ووضعها في حقيبتها.

قال صدري وهو يتفرج على هذا كله وهو واقف بالباب: «يبدو أنه لم يطبخ أيضاً اليوم؟»

لم يجب مالك المسن.

«هل هذا صحيح يا بابا؟ ألم تطبخ اليوم؟»

«لم أطبخ.»

تبادل صدري وجميلة النظر. شعرا بشيء ما.

أنهى مالك المسن عمله، وصعد الدرج لامبالياً. وجلس في زاويته، وبدأ ينظر من النافذة نحو البعيد.

خلع صدري بوطه أيضاً، واقترب من أبيه، وجلس على ركبتيه بجواره.

«ما الذي يزعجك يا أبي؟ لماذا أنت غاضب؟»

استمر الرجل المسن بالنظر إلى البعيد.

«هل رأيت منا تقصيراً؟ أم أن أحداً ما قال لك شيئاً؟ هل هذا يتعلق بي؟»

التفت المسن إلى ابنته فجأة، وسألها: «هل صحيح ما سمعته من المعلم عزت؟»

اصفرت جميلة.

«أسألك أنت؟!»

«.....»

«أسألك أنت، أجيبي!»

التفتت جميلة بحدة، ونظرت بعينيها الرطبتين نظرة كالسهم، وقالت: «نعم صحيح!»

نهضت من مكانها، وألقت بنفسها فوق كوم الفرش، وبدأت تنشج بالبكاء. كان قلب مالك يتقطع لأنه أبكي ابنته بهذا الشكل أول مرة منذ خمسة عشر عاماً. وكان يريد أن يحتضنها كما كان يفعل سابقاً، ويمسح لها دموعها، ويقبلها. ورغم هذا، وبصعوبة قليلاً، قال: «لتذهبي إلى جهنم، وأبعد من جهنم! لم يعد لدي ابنة تدعى جميلة. سأسحب نفسي، وأذهب. سأذهب إلى قريتي.» والتفت إلى ابنه: «ابني يكفيني. نخرج معاً، ونذهب. ألستن معشر النساء؟ ليتبول الكلب على أحسن واحدة منكن! إذا دخل ابن الناس إلى قلوبكن، فعلى الدنيا السلام. وترفسن بيت أبيكن ذات يوم... لا ضرر من هذا. وأنا أقول إنه ليس لدي بنت تدعى جميلة في هذه الدنيا، وينتهي الأمر. لدي ابني ياه، هذا يكفيني. نحرث الأرض معاً، ونزرع، ونحصد. ويكون لدينا بيت بغرفتين نبنيه بيدينا. تعال إلي يا بني، يا ابني الوفي...»

احتضن صدري. ونظر بطرف عينه إلى جميلة. مازالت تنشج باكية. شعر مالك المسن بمتعة وحشية بسبب نحيب ابنته، فتابع راغباً بأن يحزنها أكثر مما هي حزينة: «..يا صدري أنا، يا بني السبع. ألن نملأ مستودعنا بالحطب، ونضع غلاية القهوة على الموقد شتاء... وسيكون موي معنا أيضاً، ها؟»

قال صدري: «موسى هذا مختل ياه، يتكلم أحياناً مثل ما يرد في الكتب.»

«ماذا قال مرة أخرى؟»

«قال ألسن معشر البنات؟...»

«لا شيء يا روحي، ظفرك يساوي أفضلهن..» ونظر بطرف عينه إلى جميلة. «لا أب، ولا أم، ولا أخ يؤخذ بعين الاعتبار من أجل ابن الناس...»

التفتت جميلة غاضبة، وصرخت: «سأذهب، وألقي بنفسي إلى النهر الآن ها! ماذا تريدون مني؟»

ضحك صدري مقهقهاً. لم يبق عند مالك المسن إمكانية للاحتمال. نهض، وذهب إلى ابنته. احتضنها كما كان يفعل سابقاً. وبدأ يقبل عينيها الدامعتين. ولكن هذه لم تكن جميلة القديمة، ابنته الحبيبة، جميلته الحلوة.. ارتعد كأنه احتضن جسداً غريباً. رمى بعد ذلك من عقله كل شيء، وضمها إلى صدره بقوة: «يا جميلتي أنا! يا صغيرتي، يا جروتي...»

وصل إلى حيث كان جالساً وهو يحتضن ابنته، وجلس.

لم تعد جميلة تبكي. كانت تنظر أمامها بعينيها الدامعتين. أسندت رأسها إلى صدر أبيها. أخذ مالك المسن يداعب شعر ابنته، وهو مسرور لشعوره بثقلها، ويتكلم: «... تأخذين حفداءك، وتذهبين لزيارتي في القرية. وزوجة صدري تحلب البقرات، وتخثر اللبن، وتخض العيران. وأنا أضع النظارة على عيني، وأصنع اللعب لأحفادي. وتبلغوننا برقياً بشكل مسبق بأنكم ستأتون. ونحن نأتي إلى شاركشلا لاستقبالكم. ولكننا لن نجلب زوجة صدري...»

قال صدري: «لماذا؟ ما ذنب زوجتنا؟»

ضحكت جميلة وهي تمسك بخاصرتيها، وقالت: «لأن زوجتك قذرة، وتمسك الروث بيديها!»

«هيا يا بنت، أنت أيضاً... تقول تفوح من يديها رائحة الروث..»

«تفوح طبعاً.»

«لنر ما إن كانت زوجتي ستعجب بكم. أنا جعت يا أبي، ماذا سنأكل؟»

وبينما كان مالك المسن يتحرك، قال: «كلوني. أيتها البنت الكبيرة، قفي هكذا لأراكِ..»

نهض، ونزل إلى الأسفل.

«لأشتر بصطرمة وبيضاً، وآتي...»

رغم كل شيء ثمة ألم في قلبه. إنه ألم ناجم عن تفكيره بأن ابنته ستذهب عاجلاً أم آجلاً. خرج، وسحب الباب خلفه بهدوء.

سأل صدري: «ماذا قلت مساء؟»

بينما كانت جميلة تمسح عينها للمرة كذا، قالت: «ماذا تعرف أنت؟»

«أنا أعرف.»

«حقيقة ماذا تعرف؟»

«كنت مع موسى، ورأيناه، قال موسى: سأذهب، وأكلمه. ذهب، وكلمه. موسى أرسله إليك...»

نظرت جميلة إلى السقف شاكرة ربها: «ما أطيب هذا الرجل موسى، أليس كذلك؟»

فُتح الباب. ظهر المعلم عزت. قال صدري وجميلة: «تفضل، تفضل يا أخي، اصعد!»

قال المعلم عزت: «لا، لن أصعد. فتحت الموضوع لأبيك. لم ينفعل أبداً. قال إنني كنت متوقعاً أمراً كهذا. لا تقلقي يا جميلة...»

نظرت جميلة إلى أخيها، وابتسمت.

قال صدري: «الله لا يحرمنا إياك يا معلم! حدث كل شيء، ومر.»

«حقيقة؟»

«هبت العاصفة، وقدح البرق، ثم المطر...»

«لا مشكلة. لأقل لكما هذا أيضاً.حكيت لنجاتي الأمر بكل تفاصيله. سيفعل ما يفعله، ويرسل جدته. (لجميلة) حافظي على نظافة البيت، وترتيبه. فهم ينظرون إلى كل شيء بأدق التفاصيل. فهم فضوليون لرؤية الرمد في أعين الآخرين. (لصدري) ماذا يحدث؟ ماذا هناك في المصنع؟»

تذكر صدري هذا فجأة، فقال: «من أسوأ ما يكون!»

«من أسوأ ما يكون، ها؟..»

«الناس يغلون من الداخل يا معلم. أنا خائف جداً من يوم توزيع الأجور. رجال المعلم يحاولون تأجيج الجو سراً!»

«قادر آغا؟»

«وهذا أيضاً من جهة أخرى.»

بعد أن فكر المعلم عزت طويلاً، قال: «مؤسف، مؤسف جداً. لا تتدخل أنت!»

«لماذا يا معلم؟»

«سيعملون على ضرب الإيطالي، أو...»

نظر صدري مرتعداً. تبادلا النظر.

قالت جميلة وقد نفد صبرها: «أو من يا أخ عزت؟»

لم يجب المعلم عزت، ونظر إلى جميلة فقط. كان عقله مشغولاً. خرج بعد ذلك، وذهب.

سألت جميلة: «ماذا قصد المعلم عزت يا أخي؟»

«أراد أن يقول لعلهم يقتلون الإيطالي، ولكنني لا أعتقد هذا. لا يمكنهم أن يتمادوا إلى هذا الحد. ولكن رغم هذا، لا أحد يستطيع المعرفة...»

«سنقبض بعد غدٍ، أليس كذلك؟»

«نعم. لا تهتمي لهذا أيضاً...»

ضحكت، ونظرت البنت إلى أخيها بأمل، ثم قالت: «إيه؟»

«ولكنك ستحلين مشكلتي أيضاً!»

سألت جميلة باستغراب: «أي مشكلة؟»

«أنا لا أنوي الذهاب إلى القرية، وما قرية... لا تهتمي لأبي. الجميع يهربون من القرية إلى المدينة، فهل نذهب من المدينة إلى القرية؟ ما شغلي في القرية؟ من حقق شيئاً في تلك القرية لأحقق أنا؟ قريتي ومدينتي وأمي وأبي هو المصنع. أنا ليس لي مهنة أخرى. أنا لا أستطيع أن أعمل في عمل غير عمل المصنع. لهذا...»

نظر إلى جميلة نظرة أمل مرة أخرى. كانت حدقتاها تلمعان بلون أصفر.

«نعم، لهذا؟»

«لهذا أفكر بأن أبقى هنا، وأجلب مكانك واحدة!»

فهمت جميلة كل شيء.

سألته: «من؟»

«من؟ عاملة مثلي طبعاً... من يمكن أن تكون مثلاً؟»

«من أين أعرف أنا؟»

«فكري. توقعي لنر...»

فكرت جميلة، وحسبت... من هناك ممن يمكن أن تناسب أخاها؟ ذكرت بعض الأسماء.

قال صدري: «لم تحزري.»

«من يا هذا؟»

«من؟ صديقتك!»

أطلقت جميلة شهقة: «حليمة؟»

ضحك صدري بهدوء.

قالت جميلة: «هذا لا يمكن يا أخي، لا يمكن...»

«لماذا؟»

«عندها أم شيطانة...»

«أنا أعرف أمها، وأعرف أباها أيضاً...»

«طبعاً تعرفهما، ولكن هل تعرف أنها لا تعطيها دون دفع خمسمائة ليرة؟»

«إنها تحبني كثيراً، تقول لي تعال دائماً. وأبوها رجل طيب، طريح الفراش. والرجل متعلم أيضاً. عنده كتب كثيرة. أمها تحبني كثيراً، وترغب بأن تعطيني ابنتها. ما علاقتك أنت، اربطي العلاقة بيننا أنت، ولا تتدخلي بالباقي!»

جرفت جميلة الأفكار. من ناحية العلاقة، فهي تستطيع إيجادها، ولكنها تعرف أم حليمة جيداً جداً. كانت السيدة زينب تعمل بإصلاح الأكياس لدى تاجر ملح في الأربعين من عمرها ذات سيقان غليظة، ومكحلة، ومحفوفة الحاجبين. توقعت قصدها، وسبب حديثها مع أخيها، وبشاشة وجهها معه. نظرت إلى الخارج من النافذة المجاورة. كان الجو صحواً ومشمساً.

قال صدري: «اتفقنا؟»

تنهدت جميلة، وأجابت: «الأمر بالنسبة إلي مناسب»

21

يوم قبض الأجور كان حي العمال متوتراً منذ الصباح، ومصغياً لخبر سيأتي من المصنع، وينتظر. فلا هناك غسيل يغسل، ولا رؤوس أولاد تصوبن، ولا هناك أعمال تنجز في الزوايا شبه المظلمة.

يُنتظر، يُنتظر خبر سيأتي من المصنع، ويجب أن يأتي.

قال المعلم عزت: «يا أصدقاء، ويا أخوة، لا تكونوا لعبة بيد الآغا، والمعلمين!»

ولكن أحداً لم يصغ إليه.

كان يقال: «كفى كل هذا. فقد وصل السكين إلى العظم، ولم يبق إلا الله!

«هل حددتم مطالبكم جيداً؟»

«حددناها. يجب أن ينقلع الإيطالي، ويذهب!»

«ماذا لو لم يكن هذا ذنب الإيطالي؟»

«كان أم لم يكن. طالما أن قدومه عرض شغلنا للتوقف، فعليه أن يحمل نفسه، ويذهب أو أن يكون السيد نعمان صاحب الكلمة الفصل. وليقتلع مخربي نظام الإيطالي من جذورهم. نحن نرضى بأي شكل من هذين. فعلى الأقل كنا نحصل على مكسبنا قبل قدوم الإيطالي!»

«هل كنتم مسرورين لمكسبكم قبل قدوم الإيطالي؟»

«هذه قضية أخرى.»

لهذا السبب كان الحي ينتظر بتوتر متصاعد من دقيقة إلى أخرى.

كان المصنع أيضاً بحالة التوتر نفسها. أغلقت الأبواب بإحكام، واجتمع العمال من نساء ورجال وأولاد في الساحة التي توزع فيها النقود. كانت مجموعة النساء والفتيات ذوات الصدارات السوداء، وأغطية الرأس البيضاء منزويات على جنب. اندسسن ببعضهن البعض. ثمة قلق في أعينهن المحملقة، ويخفن من التنفس. أما النساجون ذوو بزات العمل الزرقاء المغطاة بغبار القطن فقد كانوا في الصفوف الأمامية ينتظرون بحواجب مقطبة، ووجوه عابسة، ويطلقون نخيراً من شدة الغضب. كانوا ينتظرون، ولكن للانتظار أيضاً حدود.

نخر عمر الأرناؤوطي الطويل جداً، والنحيل قائلاً: «الساعة تقترب من الرابعة!»

نظر الجميع إلى مصدر الصوت.

إلى متى سينتظرون أيضاً. سابقاً، عندما تصل الساعة إلى الثالثة، تكون النقود قد وزعت. لكل شخص من هؤلاء شغل، وعائلة وأطفال.

صرخ صادق العين الزجاجية: «إلى متى سننتظر أكثر يا ملحدين أولاد الملحدين!»

تماوج الزحام المتجمع في الفسحة أمام صالتي الغزل والنسيج كما يتماوج الماء الراكد بعد إلقاء حجر فيه. تصاعد التوتر. وارتفع صوت الشتائم. ولحظة تحول نفاذ الصبر إلى هدير غاضب، شوهدت العربات المحملة بظروف النقود وهي تخرج من باب مستودع الغزل المؤدي إلى الساحة.

قال العمال: «نشكر لله بعد كل هذا!»

صرخ أحدهم قائلاً: «على ماذا تشكرون؟ هناك وقت للشكر!»..»

«نعم ياه، لنر ما سيخرج من الظروف، هل سيخرج دب، أم ذئب؟»

«.....»

وضعت العربات في أمكنتها. وفتحت الأغطية. وفتحت جداول الأجور، وبُدئ. ثلاثة كتاب يقرؤون أرقام العمال، والعامل الذي يذكر رقمه يتقدم حاملاً بطاقة، وبعد أن يوقع على جدول الرواتب، يستلم ظرفاً أزرق فيه مكسبه لمدة خمسة عشر يوماً، وينـزوي جانباً.

كانت الظروف تفتح بفضول. وتفرغ النقود في راحة اليد، وتُعد بغضب. عندما أُدرك أنها أقل مما كانت عليه قبل مجيء الإيطالي بكثير، تُقطب الوجوه تماماً، وتتوتر الأعصاب إلى النهاية.

بعد عد النقود مرات ومرات، تجمعت المجموعات. توحدت المجموعات المؤلفة من ثلاثة أو خمسة أشخاص، والمجموعات المؤلفة من ثمانية أو عشرة أشخاص في مجموعات تتألف من عشرين أو ثلاثين شخصاً، والزحام المتقافز من الغضب، يكبر تدريجياً.

خلال ساعة تم توزيع النقود كلها. وأغلقت أغطية صناديق عربات النقود، ولُفت قوائم جداول الأجور، وطويت، وأنجز التحضير للذهاب. تمّ التحضير، ولكن العمال الذين يحملون الظروف الزرقاء بأيديهم لا يفسحون الطريق...

قال أحد الكتاب: «اسمحوا لنا كي نمر!»

لم ينبس أحد سأل كاتب آخر: «ماذا تنتظرون يا أصدقاء؟»

إحدى المجموعات التي يترأسها العين الزجاجية التفت حول الكتّاب.

«تسألون ماذا ننتظر؟ ألا تدركون ماذا ننتظر؟»

«ما ذنبنا نحن يا أصدقاء؟ نحن مثلكم...»

«نعم!»

«نحن موظفون...»

«في هذه الحال لماذا تسألون عما ننتظره؟ اسحبوا أنفسكم، واذهبوا!..»

ترنّح الكتاب بكل معنى الكلمة. أحد العمال ركل عربة ركلة قوية، وصرخ: «انقلعوا من هنا يا متكبرين، هيا انقلعوا!»

قفز أحد الكتاب. وهرع إلى المحاسبة. وشرح للمحاسب الوضع وهو متلاحق الأنفاس. وحكى له عن عيون النساجين المرعبة. وذهب المحاسب الهلع إلى المدير العام سلمون، وحكى له بسرعة ما سمعه من الكاتب.

بعد أن سمع سلمون الطويل القامة والضخم البنية من المحاسب ما سمعه وهو يعض على شفته، ذهب إلى غرفة قادر آغا.

كان قادر آغا يتجول ببطء فوق السجادة الإسبارطية الطويلة الوبر وهو يضع يديه وراء ظهره، ويستمع لما يحكيه له معلم النسيج الواقف بجانب الباب.

صمت معلم النسيج حين رأى سلمون داخلاً.

سأل قادر آغا: «ماذا هناك؟»

«العمال في حالة هياج يا سيدنا!»

سأل قادر آغا متظاهراً بأنه لا يعلم بأي شيء: «لماذا؟»

رمق سلمون معلم النسيج بنظرة، وقال: «المشاكل المعهودة كما تعرفون.»

لم يجب قادر آغا. استمر يتجول من زاوية إلى أخرى. كان يشعر بامتنان متوتر. بعد فترة طويلة، أمر قائلاً: «ناد لي ممثل العمال.»

خرج المدير العام.

التفت قادر آغا إلى معلم النسيج، وقال: «أنت أيضاً لا تظهر في الوسط، اذهب إلى بيتك!»

حيا معلم النسيج قادر آغا منحنياً حتى كاد يصل إلى الأرض، وخرج.

كان غضب العمال يتصاعد في كل لحظة. وفي لحظة تحول الهدير إلى صخب، سحب صادق العين الزجاجية إحدى عربات الصناديق، وقفز فوقها، وبدأ يصرخ: «يا شباب! هل أنتم ممتنون من النقود التي وصلت إلى أيديكم؟»

هدر العمال جميعاً، وعلى رأسهم مجموعة صادق العين الزجاجية: «لا!»

«هل كانت لديكم شكوى من النقود التي كنتم تقبضونها قبل مجيء الكافر؟»

«لا، كنا نعيش مثل المسك!»

«هل كان العمل في المصنع يتراجع قبل وجوده؟»

«من أين هذا الكلام! كان شغلنا مثل الساعة...»

«حسنٌ، ما الضرورة لهذا الكافر إذن؟»

«لا ضرورة له. ليغر في جهنم!..»

«الله يبعث له، ولمن جلبه فوق رؤوسنا البلاء!»

«لا نريده، لا نريد هذا الكافر المتعفن!»

ثمة نبض مليون كيلو واط ساعي ينبض في الساحة. سأل صادق العين الزجاجية: «لماذا تنتظرون إذن؟»

حين أشار بإصبعه نحو غرفة الإيطالي، تخبطت الساحة. تدفق الجمع الزائغ العيون، والمرتجف بقوة عبر باب صالة النسيج. تصاعد صوت الهدير، والصراخ، والشتائم. وهجموا على جدران غرفة الإيطالي حاملين المكوكات وعتلات الحديد وكل ما وقع تحت أيديهم.

كانت جميلة واقفة جانباً وهي تحمل ظرفاً أزرق ووجها شديد الصفرة، وهي ترتجف. احتارت فيما ستفعل. بحثت عن أخيها، فلم تجده.

صرخت: «يا أخي!»

هرعت نحو باب صالة النسيج. المكان في الداخل مثل يوم الحشر.

«يا أخيـ...ـي!»

كانت الفوضى قد دبت بين العمال. متدحرجون على الأرض، وملوثة أطرافهم بالدم، وركض مريع...

«يا أخـ...ـي!»

بدأت تنشج بالبكاء. فجأة خطر أبوها ببالها. وركضت نحو البيت دون أن تبال بغطاء رأسها الذي طار.

كان باب العمال مغلقاً بإحكام. بدأ تلكم الباب: «افتحوا، افتحوا الباب!»

قال البواب البوسني: «ماذا سيحدث؟ إلى أين ستذهبين؟»

«سأذهب إلى البيت، افتح الباب!»

«لا أستطيع، ممنوع!»

«أقول لك افتحه!»

خاف البواب، ففتح الباب، وقفزت جميلة نحو الخارج.

22

كان المسنان مالك وموي يجلسان القرفصاء أمام باب الغرفة. قفزا حين رأيا جميلة داخلة من الباب هلعة.

كانت جميلة تصرخ بأعلى صوتها: «اركض يا بابا، اركض، اركض، اركض!»

وضع مالك المسن ابنته بين ذراعيه، وقال: «ماذا هناك؟»

«الدم يجرف الأجساد في المصنع!»

«أين أخوك؟»

«لا أعرف!»

«كيف لا تعرفين؟»

«لا أعرف، بحثت عنه، فلم أجده.»

«هل كان بينهم أيضاً؟»

«لا أعرف. ماء، أعطوني قليلاً من الماء!»

وانهارت هناك جالسة القرفصاء.

حدثت أمور ما في رأس مالك المسن. نظر إلى رفيقه بالسلاح الواقف بجانبه، وتبادلا النظر. كانت عينا مالك المسن زائغتين. لم تعد ابنته ولا الدنيا في عقله. لم يكن هناك غير صدري. هو فقط...

دخل إلى أسفل البيت، وخرج حاملاً حطبة قوية: «هل متنا نحن يا موي؟»

قال موي غاضباً، وبالبوسنية: «لا، لم نمت يا مالك!»

كان الخبر الذي جلبته جميلة هو الخبر السيئ المنتظر منذ الصباح، وقد وصل. اهتزّ حي العمال. الأولاد والحبيبات الذين شعروا أنهم في الخطر ولجوا تحت البيت، وخرجوا حاملين حطباً وحجارةً وقطعَ خشب، وانطلقوا خلف المسنيّن مالك وموي عبر الأزقة المتعرجة المتهالكة، والمائلة لتستند إلى جنب المبنية بالبلوك والخشب. الحي كله خلف المسنين مالك وموي... كان جمع النساء الحوامل الواصلة بطونهن إلى حلوقهن والأولاد الحفاة والمسنين المصابين بالروماتيزم ومجعدي الوجوه في الأزقة، ويتضخم هذا الجمع تدريجياً، ويتدفق نحو المصنع.

ذات لحظة ظهر أمامهم المعلم عزت. أراد أن يمسك بذراع صديقه المسن المرفوعة في الهواء ممسكة الحطبة على أمل أنه سيوقف هذا السيل البشري. ولكن تلك الذراع لم تعد ذراع مسن ستيني.

«ابتعد يا عزت!»

صدمه، وقلبه. بعد ذلك تم قطع المسافة البالغة مائة وخمسين متراً بسرعة، وهجموا على باب المصنع الحديدي. ضرب مالك المسن الباب بالحطبة المشرعة بيده، وصرخ: «أعطوني ابني! أعطوني صدريّ!»

تصاعدت من الخلف أصوات: «أولادنا، أزواجنا، بناتنا!»

23

بعد غيبوبة بسيطة، صحت جميلة إلى نفسها، ونهضت. دخلت، شربت كأساً من الماء وخرجت. بحثت عن غطائها. وفي تلك اللحظة ظهر المعلم عزت بالباب. كان ملتاثاً بالطين من فرقة إلى قدمه.

«ماذا حدث يا أخ عزت؟»

لم يجب المعلم عزت، وهز رأسه بأسف.

«ماذا حدث؟ هل سقطت؟»

«لم أسقط، أُسقطت...»

كأنه سيبكي. بعد أن شرح الوضع باختصار، قال: «مع الأسف، هذا مؤسف جداً.. (وتمتم) يا لسرعة وقوعهم بالخديعة!» وسار نحو غرفته.

بحثت جميلة عن غطائها مرة أخرى. ولحظة أرادت أن تذهب إلى المصنع، لتجد أبيها، رأت سيدتين محترمتين واقفتين بباب صحن الدار، فدهشت. ما عمل أناس أنيقين إلى هذا الحد في هذا الحي؟

دخلت المرأتان إلى صحن الدار وهما تمسكان أطراف ثوبيهما، وتطأان على رؤوس أقدامهما، ومقطبات وجهيهما. لم تكن جميلة تستطيع معرفة ما ستفعله بالضبط. بعد أن تبادلت النظر مع المرأتين فترة، قالت البدينة: «ألم تري أناساً من قبل يا بنتي؟ لماذا تنظرين هكذا مستغربة؟.. تعالي!»

هرعت جميلة: «تفضلي يا سيدتي...»

«ماذا حدث لهذا الحي؟ البيوت والأزقة خاوية تماماً. لا يوجد أحد أبداً.»

«هل تبحثون عن أحد يا سيدتي؟»

«بالتأكيد نبحث عن أحد. لسنا مهووسات بهذه الأزقة القذرة!»

«عمن تبحثون؟»

«يوجد هنا فتاة عاملة تدعى جميلة.»

احمرت جميلة حتى شحمتي أذنيها، وفهمت كل شيء، وقالت: «أنا يا سيدتي!»

أطرقت برأسها، ثم رفعت عينيها البارقتين بالفرح نحو المرأتين: «تفضلوا، تفضلوا يا سيدتي!»

وهرعت إلى الغرفة. صعدت السلم على نفس واحد. التقطت ثوبها الخارجي الساقط عن مسماره، وعلقته، وسوت الستائر. ونزلت السلم على نفس واحد مرة أخرى، وخرجت: «تفضلوا يا سيدتي، سيأتي أبي بعد قليل، تفضلوا!»

كانت المرأتان تنظران إلى ما حولهما باستخفاف. أدهشت هذه النظرات جميلة. هرعت إلى غرفة المعلم عزت. قالت: «يا أخ عزت!»

كان صدرها يصعد، ويهبط بانفعال.

«نعم؟»

«انظر من جاء!»

«من؟»

«هما...»

«من هما يا ابنتي؟»

«جدته، و.. أرجوك، تعال قليلاً.»

أدرك المعلم عزت كل شيء، وضحك: «ما هذا؟ ماذا يوجد؟ ما يجري لك، ما هذا الانفعال؟ اذهبي، وقولي لهم تفضلا!»

«أنت أيضاً ستأتي، أليس كذلك يا أخ عزت؟»

«سآتي، سآتي... قولي لهما تفضلا، هيا.»

كادت جميلة تفقد وعيها. سارت نحو النساء، وتوقفت: «تفضلا يا سيدتي!»

مازالت المرأتان تنظران فقط. سألت البدينة جدة نجاتي جارتها الطويلة النحيلة التي بجانبها: «كيف؟»

قلبت الأخرى شفتها، وقالت: «ليست سيئة، ولكن...»

«إنهم أناس فقراء جداً، أليس كذلك؟»

«جداً...»

«انظري إلى هذا الصحن، وإلى هذه الغرف. إنها تسبح بالقذارة. فتاة ترعرعت في وسط كهذا...»

«وماذا عن هذه الرائحة؟ سأفقد حاسة الشم يا هذه!»

«ولد مجنون. إنه يفعل ما بوسعه لكي يجعلني أغور تحت الأرض!»

كان المعلم عزت قد غير ثيابه الملتاثة بالطين، وخرج. وقف بجوار المرأتين، وقال: «تفضلا يا سيدتي، لماذا لا تتفضلان؟»

عبرت المرأتان صحن الدار وهما ترفعان أطراف ثوبيهما، وتطأان على رؤوس أقدامهما، وتقطبان وجههما مرة أخرى. توقفتا أمام باب غرفة أسرة جميلة. كأنهما تتفقدان المكان بالشم.

كانت جميلة تنتظر عند رأس السلم. احمر خداها. وخفضت عينيها. فجأة وقع نظرها على أصابعها المعوجة، فارتبكت. أسبلت يديها لكي لا تريهما إياها، ورفعت عينيها. حين التقت عيناها بعيني المرأة العجوز الشهلاوين ازداد ضيقها، واندهشت، وابتسمت.

«تفضلا إلى الأعلى يا سيدتي!»

سألت العجوز: «أليس لك أحد؟»

«يوجد يا سيدتي.»

قال المعلم عزت: «لديها أبوها، وأخوها الأكبر.»

«من تكونون لها حضرتكم؟»

«أنا؟ جارهم.»

«جارهم فقط؟»

«نعم.»

«يعني لستم أقرباء أو شيء من هذا القبيل؟»

«لا.»

«في هذه الحال دعونا وحدنا، لنتكلم براحتنا.»

حين كان المعلم عزت ينسحب، غارت جميلة في الأرض.

قالت المرأة العجوز: «أليس لدى كبارك أي تفكير؟ وهل تترك البنت وحدها في البيت؟»

لم تجب جميلة.

«هل يدعك الكبار وحدك هكذا دائماً؟»

«لا يا سيدتي، لا يدعونني.»

«أين هم إذا كانوا لا يدعوك؟»

«إنهم في المصنع يا سيدتي.»

«هل يعمل أبوك أيضاً؟»

«لا يا سيدتي، لا يعمل، إنه مسن.»

«ألا يعمل أي شيء؟»

«لا يعمل يا سيدتي.»

«أمر غريب. أنت تعملين، ووالدك يأكل، أليس كذلك؟»

«أخي الأكبر يعمل أيضا يا سيدتي.»

«ووالدك أيضا...»

«وأبي يطبخ لنا.»

«أليس لك أم؟»

«لا يا سيدتي.»

«ماذا حدث لها؟»

«ماتت. ماتت بعد أن جئنا من بلدنا. قالوا إنني كنت في السادسة من عمري...»

«أنت بنت كبيرة، ألا تعرفين أنها ماتت؟»

«لا أعرف يا سيدتي.»

التفتت جدة نجاتي إلى جارتها، وقالت: «كنت في الخامسة من عمري عندما دخل الكفار الموسكويين إلى بلدنا. أتذكر هذا كما لو أنه حدث اليوم، وكيف أخذوا جدي وأخوالي. وأنا وأختي الكبرى، الله يرحمها، وينور

عليها قبرها، خفنا، وأمسكت إحدانا بيد الأخرى، وهربنا. أتذكر هذا كما لو أنه اليوم. حتى إن كافراً طويلاً أشقر الشاربين اعترضنا في الطريق، وحن علينا، وأعطانا نقوداً.» والتفتت إلى جميلة: «يا، هكذا. أما أنت فقد كنت في السادسة من عمرك...»

قالت جميلة: «أخفوا عنا أنها ماتت. كانت مريضة. أرسلها أبي إلى قرة غول. كنا نعتقد أنها هناك، وإذ هي ميتة. لم نعلم بهذا إلا بعد فترة طويلة.»

طفحت عينا جميلة. أدارت وجهها، ومسحتهما بذراعها.

«ما كان مرضها؟»

«كانت مريضة برئتيها يا سيدتي.»

«الله لا يرينا.. يعني سل؟»

«.....»

تبادلت المرأتان النظر، ثم تفقدتا الغرفة، وجدرانها، وفرشها، وغير ذلك.

قالت جميلة مرة أخرى: «تفضلا إلى الداخل يا سيدتي!»

دخلت المرأتان دون رغبة. صعدتا السلم مستخفتين، ومشمئزتين. وجلستا على الفراش الذي ينام عليه مالك المسن وصدري ليلاً، ويستخدم للجلوس نهاراً.

قبلت جميلة يدهما. حين خطر ببالها أن تحضر القهوة، نزلت إلى الأسفل. كانت منفعلة إلى حد أنها نسيت سبب نزولها إلى الأسفل. ولكن أصابعها هذه.. ترى هل شاهدتاها؟ ماذا لو كانتا قد شاهدتاها، ولم تعجبهما؟

حين تذكرت أنها نزلت إلى الأسفل من أجل أن تحضر القهوة، تصرفت بقلق أنها تأخرت. أنزلت الغلاية عن مسمارها. ترى هل شاهدتا أصابعها؟ لابد أنهما لم تریاها؟ لو كانتا قد شاهدتاها لسألاها لماذا أصابعك معوجة

هكذا يا بنتي؟ ولكن كم هذه المرأة غريبة. مسكين المعلم عزت... مع أنه ما أطيب المعلم عزت!

خطرت ببالها القهوة مرة أخرى. خطرت، ولكن كيف تُعد القهوة؟ لم تكن تستطيع استجماع تفكيرها بأي شكل؟ وضعت الماء في الغلاية. هذه المرة لم تجد الكبريت. آه من عثرات الشيطان... لم يكن الكبريت فقط، بل البن والسكر أيضاً في الأعلى على الرف الذي توضع فوقه الساعة المنبهة.

قفزت نحو الأعلى.

وضعت المرأتان جميلة في سجن نظرهما. حين نهضت نفسها إلى الرف، نظرتا إلى ساقيها الظاهرين من تحت الثوب المرفوع، وجداهما نحيلين قليلاً. لم يعجبهما كعبا قدميها أيضاً. وماذا عن أصابع قدميها؟

بقيت تنظران إلى القدمين النظيفين جداً والكبيرين، والخشنين قليلاً حتى عبرا من أمامهما، ونزلا الدرج.

قالت زوجة المرحوم النقيب: «وجهها ليس سيئاً.»

سألت الأخرى: «وهل هذا يكفي؟ وهل يكفي جمال الوجه؟»

«لا، ولكن... إنه الشباب، والجهل...»

«آه، آه! الدم ينشف من قلبي، الدم... ابن أب كهذا...»

«صحيح. والذي لي لا يختلف كثيراً، أليس كذلك؟»

«ولكن الذي لك لم يذهب، ويدخل فتاة عاملة إلى قلبه.»

«نعم، نعم.. ولكن النصيب، والمكتوب على الجبين...»

وعندما كانت جميلة تقدم القهوة، دخل أبوها، وأخوها، وموي المسن، والكاتب نجاتي من باب صحن الدار. خرج الكاتب نجاتي أمام مالك المسن عند باب المصنع الحديدي عندما طلب ابنه. فلم يفوت الفرصة. ذهب، ووجد صدري، وجلبه. لم يكن مالك المسن منتبها لنجاتي هذا ومن يكون،

وماذا يعمل. رغم أنهم يتحدثون منذ المصنع حتى هنا، لم يكن منتبها لنجاتي. حين دخل من باب صحن الدار، انتبه إليه فجأة، وتوقف. نظر إليه مستغرباً. من هذا أيضاً؟ لماذا جاء معهم؟ لماذا لم يتركهم، ويذهب حتى الآن؟

تبادل المسن النظر مع صديقه موي. نعم.. من هذا؟

ماذا يريد؟

حينئذ جاءت جملية راكضة. كانت مفعمة بالفرح. قالت: «جاؤوا!»

دهش الرجل المسن: «من جاء؟»

«هم!»

قال نجاتي: «هل جاءت جدتي؟»

«نعم!»

ركض نجاتي إلى الغرفة. نظر مالك إليه بغضب من الخلف، وقال: «من هذا الولد؟»

التقطت جميلة يد أبيها المشعرة الضخمة، وقبلتها.

قال صدري: «صهرك!»

اندست جميلة أكثر قليلاً بأبيها، وتأبطت ذراعه بقوة. ولكن الذراع لم تكن تلك الذراع القديمة التي قلبت المعلم عزت بدفعة واحدة... حدث ارتخاء، وانحلال لدى مالك المسن. كأن ذراعه أو جناحه قد كُسر.

لم يسمع قول موي المسن: «أوه، أوه.. أوه، الله يسعدها! ما أسعدك!» كان منتصباً تماماً، وحاداً. لم يكن يستطيع أن يتحرك. كأنه ترك ذراعه تماماً لجميلة. ينظر، وينظر نظرات خاوية تماماً، وينظر فقط إلى الغرفة ومن في الغرفة.

«هيا لنذهب يا أبي!»

لم يسمع. كان قلبه يحترق. هذا يعني.. هذا يعني أن القادمين هؤلاء.. يعني أنهم سيأخذون جميلته، جميلته الحبيبة، ويذهبون؟

فجأة كبر قلبه، وانتفخ صدره. ثم أفرغ نفسه. كانت جميلة تعانق أبيها، وتنشج.

بكى الأب وابنته فترة.

قال صدري: «عيب، والله هذا عيب كبير!»

قال موي صاحب التجربة: «دعهما!» وسحب صدري: «لا تلمسهما!»

عاد كل شيء كما كان. مسح مالك المسن عينيه بكم سترته المرقوع. ومد يده إلى صدري. سحب صدري والده نحو الغرفة. رأى مالك المسن الذين في الداخل، فخجل الرجل الكبير، وتحول فجأة إلى طفل. كان خجلاً من الدخول.

قال صدري: «عيب يا أبي. إنك تفعل أمراً معيباً جداً. ادخل، ادخل يا هذا!»

«..............؟»

«أنت كالطفل.. هيا ادخل!»

دخلوا جميعاً. كان مالك المسن يرتجف. صعد السلم متوجساً. تمتم بصوته المرتجف، ولغته الركيكة: «أهلاً وسهلاً!»

جلس على ركبتيه قلقاً وشاعراً بالذنب وبريئاً تحت نظرات المرأتين الغريبة، ووضع يديه على ركبتيه. وجلس صدري وموي كل منهما إلى طرف مثله تماماً.

حين دخلت زوجة موسى مع غوللو إلى صحن الدار، كانت جميلة قد انكمشت بجانب باب الغرفة، وتحاول سماع ما يقوله أبوها والآخرون. ركضت حين رأتهما.

كانت غوللو تحكي لها بانفعال: «... وضع المسدس في فم قادر آغا. كان سيطلق النار عليه، ولم يخلصوه من بين يديه إلا بصعوبة!»

سألت جميلة: «من يا بنت؟»

«السيد نعمان.»

«هذا يعني أنه سدد المسدس إلى فمه؟ متى؟»

«ألم تعلمي؟»

«لا...»

أوه.. يا لما حدث. جاء السيد نعمان بسيارته. وبحث قادر آغا عن ثقب ليختبئ كالجرذ. يحكي هذا من رآه.. سحب مسدسه، ودخل إلى الغرفة. ارتبك قادر. اندس بجانب خزنته الحمراء. قال له السيد نعمان: «كل هذا خرج من تحت رأسك يا عديم الشرف. هل أقتلك؟»

«بعد ذلك؟»

«بعد ذلك، خلصوه من بين يديه بصعوبة. وإلا كان سيطلق النار عليه. توسل إليه كثيراً. ارتمى على يدي وقدمي السيد نعمان. والآن الله لا يريك ما أمام المصنع. التقط السيد نعمان معلم النسيج، والعين الزجاجية وجماعته، ورماهم من المصنع.»

«جد؟ هذا يعني أنه طردهم كلهم؟»

«كلهم.»

«هل استطاعوا أن يفعلوا شيئاً للإيطالي؟»

«لم يستطيعوا. طوقت الشرطة المصنع. ولكن الرجل ذئب. رغم هجوم كل هذا العدد من الناس على غرفته لم يستطيعوا كسر بابها. فقد صنع الكافر باب غرفته قوياً جداً.»

حين بقيتا وحدهما لحظة، أخبرتها جميلة بالخبر السعيد: «جاؤوا يا غوللو!»

مازال فكر غوللو وسط هدير المصنع حتى تلك اللحظة، فلم تسمعها حتى. انتبهت حين أعادت هذا جميلة.

«هل جاؤوا؟ من؟»

«جدته!»

«حقيقة؟ متى؟»

«قبل قليل.»

«هل هم في الداخل؟»

«في الداخل.»

«جد يا بنت؟ لأذهب، وأنظر إليهم...»

لبست بقدميها الحافيين نعلين، ودفعت الباب، ودخلت.

«أهلاً وسهلاً!»

كانت السيدة البدينة تدخن سيجارة. رمقت غوللو بنظرة، ولم تبالِ. غضبت غوللو. ما هذا التكبر؟ السلام سلام الله. لماذا لم يبادلنها السلام؟

تركت نعليها عند أسفل الدرج، وصعدت.

قطعت النساء الحديث، وبدأن ينظرن إلى غوللو. لماذا ينظرن يعني؟ ألم يرين إنساناً؟»

«لماذا قطعتم كلامكم؟»

غضبت المرأة البدينة: «ومن أنت لتتدخلي بحديثنا؟»

قال مالك المسن باللغة البوسنية: «لا تتكلمي بعبارة حادة!»

حزنت غوللو. أجابت المرأة البدينة: «أمة الله!»

«فهمنا أنك أمة الله. هل أنت قريبة البنت أو ما شابه ذلك؟»

«إيه، أعد هكذا.»

«لست قريبتها...»

إيه.. هل أخرج إلى الخارج؟»

«أي امرأة أنت يا هذه؟»

نهضت غوللو. وقبل أن تنـزل السلم، قالت: «امرأة مثلكم. إنسانة بذراعين ورجلين!» ولبست النعلين بقدميها، وخرجت.

أما سكان الصحن فقد تحلقوا حول جميلة. عندما اقتربت منهم غوللو، قطعوا حديثهم.

سألت غوللو: «هل تلك البدينة حماتك يا بنت؟»

هزت جميلة رأسها، ثم صححت بسرعة: «ليست حماتي، بل حماة حماتي.»

«إنها امرأة متكبرة جداً. ستعانين منها كثيراً!»

«لماذا؟»

حكت لها فوراً.

قالت جميلة: «ما علاقتي بها!»

قالت امرأة عجوز: «لا شيء. يلزمها ولد.»

فجأة تحول الحديث إلى حالة عامة.

«يلزمها، يلزمها.»

«هكذا يا بنت؟ هل ستدعيننا يا جميلة إلى عرسك؟»

«وهل يمكن ألا أدعوكم؟»

«جميلة بنت طيبة، تدعيننا.»

«.....»

«.....»

كانت البنت السمراء منـزوية جانباً تسمع لما يحكى وهي تعلك علكة بشكل عصبي. نظرت إلى جميلة بحقد. في رأسها ثلاث قطع من فئة العشر ليرات... ما فائدتها؟.. طردوا العين الزجاجية والآخرين من العمل. من يعلم، لعل الجمال خليل الأنكش وقع بهمِّ إنقاذ روحه، فتخلى عن الأمر.

ذهبت إلى الباب وهي متضايقة. ودخلت وسط النساء اللواتي يراقبن الباب.

حكى من في الداخل ما يجب أن يحكوه، وكانوا خارجين. نظرت البنت السمراء إلى السيدتين المحترمتين بحنق. وقفت البدينة بجوار جميلة. التقطت جميلة يد السيدة البدينة، وقبلتها، ثم قبلت يد الأخرى.

قالت البدينة: «صرت ابنتي. ليس هناك مصنع وما مصنع بعد الآن!»

امتقعت جميلة بالحمرة.

سارت المرأتان وهما ترفعان أطراف ثوبيهما، وتطآن على رؤوس أقدامهما كما جاءتا متجهتين نحو باب الصحن. ودعتهما جميلة حتى درجة السلم الخارجية السفلية، وعادت، ووقفت بالباب. جُرِحَ الآخرون فوراً.

قالت غوللو: «ليس هناك مصنع وما مصنع! وبعد ذلك؟ ماذا ستفعلين يا بنت؟»

قالت امرأة عاملة أخرى: «ماذا ستفعل؟ لا شيء. طالما أنهم لا يريدونها أن تعمل، فسيعطونها راتباً، ولا تعمل. أليس كذلك يا جميلة؟»

لم تكن جميلة تعرف ما تقوله. ألقت نظرة بهدوء من فرجة الباب. كان أبوها جالساً متربعاً أمام النافذة، وينظر إلى الخارج. ولابد أن موي المسن يحاول أن يسليه.

فجأة خرج صدري. وقف أمام الباب متوتراً. حين وقعت عينه على البنت السمراء، ازداد توتره.

قال لأخته: «اذهبي إلى جانب أبيك!»

دخلت جميلة، وصعدت السلم بهدوء قِط، وجلست بجانب ركبة أبيها.

كان موي المسن ينظر مبتسماً.

وضعت ذراعها على كتف أبيها بداية، ثم أسندت رأسه على صدرها. كان مالك المسن الذي يتصرف وكأنه لا يعلم بشيء من هذا، مازال ينظر إلى الخارج.

الجو في الخارج يظلم تدريجياً. والأزقة الطينية وبيوت البلوك المحاطة بأسوار متصدعة تتداخل مع وجه البحيرة الكبيرة المظلم وتتمدد على طولها.

جلسوا طويلاً حتى خيم الظلام تماماً.

كان مالك المسن يبدو عليه الحزن. كأنه تقدم فجأة بالسن كثيراً. أعطى كلمة بجميلته. ستخرج من هذا البيت، وتذهب، وتغدو لآخرين.

هز ابنته بشكل خفيف قبل أن ينهض لكي لا يري ابنته رموش عينيه الرطبة، وقال لها: «أشعلي المصباح!»

نهضت جميلة ببطء.

24

رأى قادر آغا من نافذة غرفته سيارة السيد نعمان الحمراء الخاصة، فهرع وعلى رأسه البيريه الكحلية، واستقبله عند الباب. صار كلباً على هذا النحو منذ وضع المسدس في فمه، ولان هكذا أيضاً.

أما السيد نعمان شريف ذو الحاجبين الغليظين الأشيبين فقد دخل غرفته دون أن ينظر إلى شريكه. علق قبعته المدروة، وعكازه. تناول صدارته البيضاء التي يلبسها عندما يتفقد داخل المصنع عن العلاقة. كان سيلبسها. أراد أن يمسكها له قادر آغا. لم يعطها السيد نعمان له. كان يشمئز من شريكه صاحب الوجهين.

قال: «لا ضرورة، لا ضرورة...»

ألح قادر آغا: «هات يا سيد نعمان، لأمسكها لك. حتى جناب الله لا يصفع وجه عبده بعيبه!»

لم يجبه السيد نعمان. ارتدى صدارته بنفسه. ثم دخل، وجلس خلف طاولته المصنوعة من خشب الجوز. دقق تقارير الإنتاج الموضوعة أمامه. انخفض إنتاج الخيوط والنسيج كثيراً. نظر إلى شريكه بكره. قال كأنه يبصق: «انخفض الإنتاج إلى أقصى حد ممكن خلال أسبوع بفضلك.»

أخرج قادر آغا سبحته ذات الحبات الكبيرة السوداء، وخفض نظره مبدياً شعوراً بالذنب. انكمش في المقعد الذي يجلس عليه، وكان ينظر إلى شريكه، ويخفض بصره إلى الأرض فوراً لكي لا يلتقي نظرهما.

في إحدى الأثناء تكلم السيد نعمان بشكل صريح: «من يعلم كم سينخفض أكثر. مهما يكن، هناك صدقة مدفوعة أنقذتك. وإلا...»

ارتفعت عينا قادر آغا عن الأرض، وقابلت عينا شريكه السوداوين الواسعتين: «كنت ضغطت على الزناد منذ زمن!»

ضغط على الجرس. قال للبواب الذي دخل: «ناد المدير العام.»

دخل بعد قليل المدير العام سلمون الطويل القامة بكتفيه العريضين. حيا حضرة السيد منحنياً حتى كاد يصل إلى الأرض.

سأل السيد نعمان بحدة: «هل أرسلت الإعلانات للصحف؟»

لم يجب سلمون فوراً. كان ينظر متردداً.

«لماذا تنظر؟»

«لا شيء يا سيدي.»

«لماذا لم تجب؟»

ابتلع سلمون ريقه، واقترب، ثم قال: «هذا...»

ذهبت عيناه نحو قادر آغا. كأنه كان ينتظر مدداً منه. أما هذا فقد أطرق برأسه قدر المستطاع، ويسبح، ولم يكن يستطيع النظر حتى..

«أجب يا هذا!»

«يا سيدي، جلب العمال من اسطنبول أو إزمير سهل. ولكن، ألا تتوقعون النتائج التي يمكن أن تنجم عن هذا؟»

«مثل ماذا؟»

«العمال الذين سيُجلبون من المناطق الأكثر وعياً... هل يتحملون الحياة التي يحتملها عمالنا المحليون؟»

«كيف؟»

«قبل كل شيء هناك قضية الأجور. لا يمكن أن يعملوا بالأجرة التي يعمل بها العمال المحليون. سيطلبون أجراً أعلى.»

«نعم؟»

«مع ازدياد الحاجات المدنية، معلوم...»

«بالتأكيد.»

«العمال الذين سيُجلبون من إزمير أو اسطنبول مساوون تقريباً لمن يعمل عندنا في خدمة المحاسبة. عيونهم مفتحة. ولا يمكن أن ينحنوا بسهولة لتأنيب المعلمين أو ضربهم. الأسوأ، أن القادمين من إزمير أو اسطنبول

سيجلبون معهم رقصهم وموسيقاهم، وحماماتهم، وألبستهم النظيفة التي يرتدونها في عطلة نهاية الأسبوع. وهذا سيؤثر على عمالنا المحليين الهادئين المستكينين الذين يعيشون بحالهم ولا يطالبون بالمزيد، وسيفتح أعينهم. سيكونون نموذجاً لجماعتنا. وقبل مرور فترة طويلة سنعيش أزمة عمال كما تعرفون.»

«نهاية هذا؟»

«كما تتوقعون...»

وجد السيد نعمان شريف أن سلمون محقاً. كانت كلمات اليهودي الخبيث صحيحة. ولم يغب عنه هذا التفكير أيضاً. ولكن السهم انفلت من القوس، وأصدر أمره. والقضية ليست أنه أصدر أمره فقط، فقد طرد قسماً كبيراً من العمال أيضاً.

«مهما يكن. نفذ أمري فوراً. اجعلهم يطبعون لك إعلانات طلب العمال فوراً، وأرسلها. انطلق!»

مازال سلمون متردداً. نظر إلى قادر آغا. لا، لم يكن موجوداً. فقد أطرق برأسه، وهو يسبح. رفع رأسه مرة. التقت عيناه بعيني سلمون. دهش. ثم تنهد قائلاً: «الله!»

احتد السيد نعمان مرة أخرى: «لماذا تنتصب حتى الآن؟»

تلعثم سلمون: «هذا.. لو ننتظر عدة أيام...»

«السبب؟ لماذا سننتظر؟»

«من ينهض غاضباً، يجلس متضرراً...»

«اذهب إلى غرفتك فوراً، ونفذ الأمر الذي أمرتك به حرفياً. هيا!»

لم يعد هناك كلام يمكن قوله أو وقت يمكن إضاعته. خرج سلمون من الغرفة وهو على وشك الانهيار. وصل إلى غرفته. لم ينظر حتى إلى

معلم النسيج الواقف جانباً وقد تهدلت عضلات وجهه. ذهب إلى طاولته، وجلس.

اقترب معلم النسيج منه منكمشاً، ولم يسأل عن أي شيء.

قال سلمون: «مهما فعلنا فلا جدوى.»

كان معلم النسيج قلقاً: «لا جدوى ها؟»

«فوق هذا مازال متوتراً بشكل فظيع حتى الآن.»

«هذا يعني أن علي ألا أدخل عنده؟»

«احذر!»

«أما أنا... كنت أقول سأرتمي على يديه ورجليه.»

«احذر، احذر، احذر...»

«ماذا يقول قادر آغا؟»

«ماذا يمكنه أن يقول؟ يجلس مثل قط سفح الحليب.»

«حسنٌ، ماذا ستكون نهاية هذا الأمر؟»

«سنجلب عمالاً من إزمير واسطنبول!»

أجاب معلم النسيج وكأن عقله قد طار: «وهل يعمل العامل الذي يُجلب من اسطنبول وإزمير بأجرة قليلة مثل العامل المحلي؟ سيطلب مكاناً جيداً ينام فيه، ويطلب طعاماً جيداً...»

«قلت هذا. قلته كله...»

تبادلا النظر مطولاً. بدا معلم النسيج في حال شديدة من اليأس. بدأ يتمتم: «آه يا قادر آغا، آه! أدخلتنا في قذارة، حتى الصابون العربي لا ينظفها. ما كان شغلي أنا بالصراع مع وسخ الناس؟ كان الحال ماشياً حسناً أو سيئاً.»

غمز سلمون الماكر: «ألا يرعاك قادر آغا؟»

«وهل ينتهي الأمر برعايته لي؟ العمال كالوحوش. سيشرب الجماعة دمي. عن نفسي فقد خُدعت بقادر آغا، ولكن تعال احك هذا للعمال. إنهم ينخرون طوال اليوم في زوايا المقاهي. الوضع بالنسبة لي ليس سيئاً. أسحب نفسي، وأذهب إلى طرسوس أو قيصري. أو أذهب إلى نازللي.»

«لماذا لا تذهب؟»

«ماذا سيحل بالعمال؟»

هز سلمون كتفه: «ليحل ما يحل. ليسوا أبناء أبيك ياه!»

أراد أن يجيبه معلم النسيج أو يقول شيئاً ما، فسُمع سعال السيد نعمان الغليظ. لابد أنه قادم إلى غرفة سلمون. طالما أنه متوتر، فعليه أن لا يقع تحت بصره. خرج في الوقت المناسب بالضبط من الباب المؤدي إلى المحاسبة. ذهب إلى مقهى العمال المقابل للمصنع.

تحلق حوله العمال وعلى رأسهم ابن أخته صادق العين الزجاجية.

سأله صادق العين الزجاجية بفضول: «ماذا حدث يا خال؟»

«لا يوجد شيء حالياً!»

«حسنٌ، ماذا سيحصل؟»

«لا أدري.»

حدثت همهمات. نظر إلى عيون الذين همهموا، فخاف. لم تعد تلك النظرات مطيعة غير معترضة كما كانت سابقاً. كانت تقدح بالحقد.

قال: «ما ذنبي أنا؟ أنا فعلت ما أستطيع.»

تكررت الهمهمات.

قال صادق العين الزجاجية: «أمر مزعج!»

«أنت أيضاً يا صادق؟»

«ماذا أفعل يا خالي؟ ليس لدي حيلة ولا نقود...»

«انتظروا لنرى، يا لما يلد قبل ولادة اليوم...»

قال عامل غليظ العظام، وحاد النظرات: «سيولد جوع، وبؤس، وموت!»

تمتم آخر: «فعلت ما فعلته!»

التفت المعلم خائفاً: «ماذا فعلت أنا؟ ما ذنبي أنا؟»

«صحيح. ما ذنبك أنت؟ الذنب ذنبنا، ذنب أمثالنا المخبولين الذي انجرفنا بأمثالك!»

خيم صمت ثقيل يبث الخوف. كان معلم النسيج يرتجف. قال في سره: «الحمد لله أنه لا يعلمون بخبر العمال الذين سيجلبون من إزمير واسطنبول!»

خرج من المقهى والعرق البارد يتصبب من ظهره.

25

دخل نجاتي والمعلم عزت المقهى وهما يتبادلان الحديث. وجلسا في إحدى الزوايا.

قال المعلم عزت: «لئلا يسمع الناس خبر مجيء عمال اسطنبول وإزمير منك.»

«لماذا؟»

«يمكن أن يحدث هذا هزة في المصنع من جهة، وبين العمال من جهة أخرى.»

كان العمال يتوجهون نحوهما. غير المعلم عزت الحديث: «هذا يعني أن جدتك غير موافقة على أخذك البنت؟»

«ليست موافقة، ولكن من سيصغي إليها؟»

«أنت مضطر للاستماع إليها!»

«ممكن، ولكن...»

«إيه؟»

«ماذا يخطر ببالي، أتعرف؟ أهمل جدتي...»

«نعم؟»

«أعقد القران، وأجمع أغراضي...»

«وتنـزل في بيت البنت، ها؟»

«هذه هي القضية. وإلا فإن هذا الأمر لن يتم.»

«ماذا تقول العجوز؟»

«ماذا لا تقول؟ إنها مترددة. الحي يتخبط بالشائعات. ينبغي أن ألتزم بسمعة أبي... ليس لي حق بالزواج من فتاة تعمل في المصنع؟ ما أغبى هؤلاء! البنت لا تعمل في المصنع بمزاجها. لحظة قولي لها لا تعملي...»

«صحيح. على الأقل يجب أن تعطيها عشر ليرات في الشهر!»

«أليس كذلك ياه؟ لا أستطيع أن أعطيها. أربع وعشرون ليرة وخمسة وتسعون قرشاً لا تكفي لي وحدي. بقي...»

قال أحد العمال الغاضبين الذين تحلقوا حولهما: «يا معلم.. يا معلم عزت... اسمعنا نحن قليلاً أيضاً. ماذا سيحل بنا نحن يا أخي؟ جعلوننا نحتاج الخبز الحاف. انصحنا!»

التفت المعلم عزت إلى العامل المهموم. كانت عينا الرجل تقدحان بالحقد. كانتا تلمعان، ولكنه في حال تثير الشفقة. ولكن ما الذي يمكنه أن يفعله له؟ ورغم أنه لا يستطيع أن يفعل له شيئاً، فهو يعرف أن السلوان الجاف لا يفيد شيئاً أيضاً. وفي الحقيقة إنه حاول الحيلولة دون هذا، وتوسل لهم

لكي لا يقعوا في الكذب، ولكن هذا ليس وقت تذكيرهم به. ثمة نظرات تعبر عن ضيق يسببه معرفتهم طول البطالة التي سيعانون منها، وخدود متهدلة، ولحى طويلة، ووجوه سوداء مصفرة...

كانوا لا يتحملون لكزة. ما الذي لا يمكن جعلهم يفعلونه! ألا يمكنهم كسر الأقفال؟ ألا يمكنهم أن يجعلوا الأبواب الحديدة مثل الصفيح الرقيق؟ ألا يمكنهم أن يقلبوا الأبنية بأكتافهم؟

قال آخر: «نفسي يدخل ولا يخرج. يكاد الدم ينفر من أنفي. وعندما لا أستطيع أن أفرغ غضبي، أبكي. أنا رجل هذا القد قده وأبكي. انظر إلى يدي هاتين. كلها مجرحة. لا أرغب بالذهاب إلى البيت. نظرات الأولاد اليائسة... في ذاك اليوم لكمت جدران البلوك في البيت!»

كانت رموشه تلمع بالرطوبة.

«... كل هذا بطرف، والأصغر بطرف. بهذا القد. وهو ضعيف.. يكح طوال اليوم. قال طبيب المستشفى القومي إنه الخنّاق. أعطوني وصفة، ليس لدي نقود لأشتري الدواء. إنه يصيح كالديك حتى الصباح!»

كان ببال المعلم عزت رأس ابنه الذي انفصل عن جسده تحت عجلات القطار بشعره الأشقر. هو أيضاً أصيب بالخناق هكذا. وكان يصيح كالديك حتى الصباح أيضاً. تنهد..

«أخاف من الذهاب إلى البيت، وأخاف من النظر في وجه زوجتي وأطفالي يا معلم. ألا أتمدد على الفراش، وأسحب اللحاف إلى فوق رأسي؟ الله، الله... قص، وفصّل.. قس، وفصّل حتى الصباح...»

نظر إلى المعلم عزت غاضباً: «اسحب المسدس، وأطلق على نفسك، ولكن...»

غضب المعلم عزت: «ما هذا الكلام؟ تتحدثون عن الموت والقتل فور بقائكم دون عمل... ليست الشطارة بالموت والقتل، بل الصراع مع هذه الظروف السيئة!»

«كيف؟»

«وهل هذا سؤال؟ مثلاً ابحثوا في أمكنة أخرى عن عمل آخر!»

«يقول معلم النسيج انتظروا. هناك أمل. العين الزجاجية، أتعرف العين الزجاجية؟ يقول انتظروا. إن قادر آغا يقول إنه سيهدئ السيد نعمان. وقال لينتظروا، سأعيدهم إلى العمل من جديد. من يعلم؟»

رمقهم نجاتي بنظرة. كان العامل بعينيه المدفونتين بهمومه كتلة من التوتر من فرقه إلى قدمه. لم يرغب بأن يقول له ليس هناك أي أمل من قادر آغا كي لا يقطع أمله. نهض.

سأله المعلم عزت: «هل أنت ذاهب؟»

«ذاهب، أستودعكم الله..»

خرج من المقهى. وضع صادق العين الزجاجية كرسيه على الرصيف الإسمنتي للمقهى، وفكر بعمق. وقع نظره على نجاتي. خطرت جميلة بباله. حقيقة، ماذا حل بتلك القضية؟ أين الجمّال خليل الأنكش؟ لماذا لا يظهر؟

نهض عن كرسيه.

لو وجد الجمال خليل الأنكش، وطلب منه ديناً... ليست فكرة سيئة أبداً. سيفيده في هذه اللحظة كثيراً. أما عن تسديد الدين...

فجأة قالت البنت السمراء: «مرحبا يا ابن الخال!»

«مرحبا يا أختي. خير إن شاء الله؟»

«يطلبك خليل آغا.»

عبرت قلب صادق العين الزجاجية رعشة منعشة كالنسيم. رغم هذا، قال: «ماذا سيفعل؟

«لا أعرف، يريدك على عجل.»

«هل هي قضية البنت؟»

«لا أعرف.»

«أنا وقعت بمشكلة إنقاذ روحي، وهو حتى الآن...»

«ألن تأتي؟»

ثمة فائدة من تدليل نفسه: «لن آتي.»

حين أخبرت البنت السمراء الجمال خليل الأنكش الناطر عند بائع الكباب على زاوية الشارع المؤدي إلى حي العمال بالوضع، قال الجمال خليل الأنكش: «يعني أنه لن يأتي، لماذا؟»

«لا أدري.»

«يجب أن يكون هناك سبب.»

«سبب!... عاطل عن العمل، ومهموم. يقول أنا وقعت بهمِّ إنقاذ روحي!»

فهم الجمّال خليل الأنكش الوضع. لابد أنه مفلس. فقد تلقى خبراً عن هذا، وهرع قادماً. قال لها: «اجلسي أنت. أنا أجلبه، وآتي.» وابتعد مسرعاً.

حين بقيت البنت السمراء وحدها، رفعت غطاء رأسها، وألقته على الكرسي المجاور لها. بما أن الجمال خليل الأنكش عطلها عن عملها اليوم، فهل سيعطيها يوميتها؟ لماذا تعطل شغلها من أجل متعة الآخرين، ودون وجود أي مصلحة لها؟ ثم إلى أين ستؤول نهاية هذا الأمر؟ البنت لا تريده، وتريد الشاب. ومازال لدى الجمال خليل الأنكش أمل.

لملمت نفسها عندما جاء الجمال خليل الأنكش وصادق العين الزجاجية.

قال الجمال خليل الأنكش: «لم تستطيعي أن تجلبيه، انظري! كيف جلبته؟»

نظرت البنت السمراء إلى صادق العين الزجاجية منـزعجة: «حباً بالله يا ابن الخال. هذا يعني أنه ليس لي عندك أي خاطر!»

قال صادق العين الزجاجية بحاله المتضايقة تلك: «ليست مشكلة، ساءت حالنا فترة. يبدو أن الخال وما خال في هذه الدنيا لا يساوي شيئاً. أمسكني، ودفع بي إلى الأمام. حرض العمال. والآن أيضاً... هل يمكن التجول دون قرش واحد؟ وهل أنا مليونير؟»

سأله الجمال خليل الأنكش باهتمام: «طالما أنه حرضك، عليه أن يعوضك الآن. ألا يعطيك نقوداً؟»

طلب الكباب والنبيذ.

قال صادق العين الزجاجية: «لا يعطيني. يقول اصبروا. ستكون النهاية جيدة. لا يبدو أن هناك شيئاً جيداً، ولا سيكون. مع أن الإيطاليين يكونون خوافين، إذا ضربتموه، يهرب، ويبقى العمل لنا كما كان سابقاً. كان قادر آغا يقول في تلك الفترة، ليطلبوا مني ما يطلبوه. عندما ساءت الأمور، فلم يبال بنا هو أيضاً. ماذا ستفعل يا أخي، فهمنا أننا استهلكنا!»

وصل كباب ساخن، وزجاجة نبيذ كبيرة. لم يكن صادق العين الزجاجية يرى النبيذ أو غيره. لم يدخل معدته شيء ساخن منذ أيام. وبينما كان يمضغ قطعة كباب كبيرة بين أضراسه القوية، قال: «بين الأصدقاء من هم محتاجون حتى الخبز الحاف. الجماعة لا يجدون ثمن القهوة!»

«هيا بصحتك!»

شربوا. تابع صادق العين الزجاجية كلامه: «إنهم يبكون ياه، يجعل أمي زوجتي إذا كنت أكذب، إنهم يبكون!»

قالت البنت السمراء: «عيب، عيب.. وهل يبكي الرجال؟»

غضب صادق العين الزجاجية: «الرجولة والشهامة تكون بالنقود يا بنتي. غير موجودة، إنها غير موجودة! وأنا مثال على هذا. حتى بائع الكباب هذا غيّر موقفه. كيف كان قديماً؟ كان لا يهمل تحيتي، والسؤال عن صحتي وأحوالي حتى عندما أقابله في الشارع. والآن؟»

كان الجمال خليل الأنكش يتحين الفرصة من أجل فتح حديث جميلة، ولكنه كان يخشى وضع صادق العين الزجاجية المهموم. قال في لحظة من اللحظات: «كفى أيها العين الزجاجية. نحن جلسنا هنا لنحكي عبارتين، ونضحك...»

«لا أجد دافعاً في نفسي يا ابن العم، لا أجد شهية لهذا!»

«معك حق، البطالة شيء سيئ، معلوم.. معلوم يا هذا...»

«إيه؟»

«بعد أن يُفهم وضعك في المصنع، نفكر لك بحل.»

«كيف؟»

«لا تتدخل بالكيفية.»

لمع أمل براق عند صادق العين الزجاجية: «ليس لدي أمل من المصنع. باب المصنع أغلق بوجهنا نهائياً!»

«إذا كان قد أغلق، فأنا أقوم بواجب الصداقة.»

«مثل ماذا؟»

«ماذا سيكون؟ نستأجر دكاناً شراكة. الرأسمال علي، والجهد عليك!»

سأل صادق العين الزجاجية: «هل نعمله مقهى؟»

«لماذا لا نعمله؟»

«ماذا إذن؟..»

«هل هناك مقهى فارغ؟»

«اسمع إلى ما يقول، اسمع!»

«أين؟»

«هناك مقهى سيلو الذي نعرفه. فارغ. يؤجرنا إياه.»

«هل هو في هذا الحي؟»

انحنى صادق العين الزجاجية، وأشار إلى الدكان المدهون بالأزرق والواقع على يسار الشارع المؤدي إلى حي العمال: «إنه كبير جداً.»

«نبيع بضع مئات في اليوم.»

«حسنٌ يا هذا. نذهب بعد قليل، ونراه.»

«بعد قليل؟ هل هذا جد؟ هل نستأجره فوراً؟»

«إذا ناسبنا نستأجره؟»

فجأة سَكِرَ صادق العين الزجاجية. لم يعد هناك بباله خاله، ولا العمال المطرودون من العمل والباكون لتعطلهم عن العمل... ملأ كأسه بالنبيذ، وقلبه بجرعة واحدة: «يلعن أم من لا يموت من أجلك وزوجته وأجداده وسلالته...»

سر الجمال خليل الأنكش، فقال: «لا يا روحي، ليس إلى هذا الحد.»

«من؟ من لا يموت من أجلك فهو...»

«حسنٌ، حسنٌ.. لا ضرورة للموت. لنرتب تلك المسألة، ويكفي.»

نظر إلى البنت السمراء، وغمزها. كانت البنت السمراء ممتقعة بالزرقة

من الحنق. ما علاقتها بتلك المسألة؟ صادق العين الزجاجية سيكون صاحب مقهى، وهي؟

ازداد تدريجياً سكر صادق العين الزجاجية: «فشلنا في تلك المرة بسبب أختنا. لم نستطع خطف البنت، ولكن هذه المرة... هل أنت مجنون؟ لتكن أمي زوجتي إذا لم أجرها هذه المرة من عند ركبة أبيها. أليس كذلك يا أختي؟»

لم تجب البنت السمراء. كان صادق العين الزجاجية مستمتعاً جداً إلى حد أنه لم يعر اهتماماً لضيق البنت السمراء، ولا لعدم ردها... حتى إنه لم ينتبه.

«عزيزي... عندما نكون مستمتعين، تغدو الأمور على ما يرام! إذا بعنا ثلاثمائة طلب كل يوم، والواحد بثلاثة قروش، فهذا يساوي تسع ليرات. اطرح نصفها نفقات، تبقى أربع ليرات ونصف. ونصف الأربع ليرات ونصف لك، ونصفها الباقي لي.. ما قولك؟»

قال الجمال خليل الأنكش: «أنا لا أريد، وأنت تدفع لي الدين الذي دفعته عنك. وبعد أن تدفع دينك...»

ازداد انفعال صادق العين الزجاجية: «بعد أن أدفعه؟»

«تغدو المقهى لك؟»

قفز صادق العين الزجاجية عن الطاولة. وصرخ ببائع الكباب الجالس وراء بسطته: «يا ابن أخي!»

أجاب بائع الكباب دون رغبة: «أمرك!»

«ضع أسطوانة راقصة على الغرامافون!»

وضع أسطوانة الرقص على الغرامافون! وبدأ يطقطق بإصبعيه مثل راقصة محترفة، وهز بطنه. كانت عيناه قد زاغتا. مسح الخجل والحياء والعيب، ويدور بكل ما يستطيع. هل كان بوقاً؟ سيصير صاحب مقهى. سيكسب عدة

أضعاف على الأقل مما كان يصل إلى يده من عمل النسيج الذي كان يعمله برعاية خاله.

يمكنه أن يهدم الدنيا!

كان يقترب من الطاولة أحياناً، ويأخذ كأس النبيذ الذي كان يملؤه الجمال خليل الأنكش، ويرفعه بصحة الذين هناك، ثم يستمر بالرقص باندفاع وحيوية كبرى.

أما البنت السمراء فقد كانت تزيد من عبوسها. ما علاقتها؟ ما دخلها بكل هذا؟ ما ضرورتها؟ لماذا ستقدم المساعدة من أجل خطف البنت مرة ثانية؟ لصادق العين الزجاجية مصلحة في هذا. فهي تعرف نهاية خطف البنت بالقوة. هناك سجن في النهاية. الأمر بالنسبة لصادق العين الزجاجية سيكون جيداً رغم هذا. يمكن أن يترك المقهى لأخيه، أو لزوجته، وينام عدة أشهر. أما هي؟ من لها غير أمها العجوز المجعدة الوجه؟ من سيرعاها إذا سقطت في السجن؟ هل الجمال خليل الأنكش؟ أم صادق العين الزجاجية؟ لا أحد منهما. ستموت الفقيرة أمها، وهي...

ملأ محل الكباب عمال وعاطلون، وشباب وشياب، وبدؤوا يصفقون بإيقاع للعين الزجاجية.

نهضت بهدوء. وانسلت من طرف الزحام، وخرجت. كان الجو صحواً ومشمساً. كانت خائفة كأنهم سيلحقون بها، ويعيدونها. لم تكن تريد صادق العين الزجاجية، ولا الجمال خليل الأنكش، ولا كبابهم، ولا نبيذهم. ولا تريد أن تكون أداة بيد الآخرين، كما تريد أن تخبر البنت بالوضع. من يخرب بيتاً، يُخرب بيته. طالما أنهم طلبوا البنت، فهذا يعني أنها ستؤسس بيتاً. وطالما أن هذا سيحدث، فعليها ألا تخربه.

قال المعلم عزت فجأة: «إلى أين يا أختي؟»

توقفت. كان رأسها يدور بشكل خفيف بتأثير النبيذ الذي شربته، وتهتز.

قالت: «إلى بيت جميلة.»

اهتم المعلم عزت: «ماذا ستفعلين؟»

«لا شيء...»

يخشى أن يكونوا مازالوا يسعون لسفالة أو كمين؟ وليحاول استدراجها بالكلام، قال: «خطوبة جميلة قريبة.»

لم يكن ثمة شيء كهذا، ليس ثمة شيء كهذا بعد. كان يعرف أن جدة نجاتي غيرت رأيها. حكى له نجاتي أنه تشاجر البارحة مع جدته من أجل هذا الأمر. قال لها، «إذا اضطر الأمر، فأحمل فراشي، وأذهب إلى بيت البنت.»

سألت البنت السمراء: «متى؟»

«قريباً جداً.»

«إن شاء الله يا أخي، إن شاء الله، ولكن...»

دب الشك في قلب المعلم: «إيه؟»

«إذا لم يسرعوا بالأمر...»

«ماذا يحدث؟»

حكت له كل شيء على نفس واحد. اهتز المعلم عزت. هذا يعني أن الجمال خليل الأنكش مقرر على هذا. حتى إنه أخذ بعين الاعتبار استئجار مقهى سيلو الفارغة هذه الأيام من أجل أن يجعله يفعل ما يريد، أليس كذلك؟

«ألهذا ستقابلين جميلة؟»

«نعم. من يخرب بيتاً، يُخرب بيته. أنا لا أنزل تحت الحرام يا أخي.»

فكر المعلم عزت قليلاً: ماذا يمكن للبنت أن تفعل؟ كل شيء بيد نجاتي. الأفضل أن يفتح الموضوع له، ويخلص البنت من احتمال وقوع كارثة.

قال: «لا تذكري هذا لجميلة.»

«لماذا؟»

شرح لها. وقد شرح لها هذا بالتفصيل. واقتنعت البنت السمراء.

«طالما الأمر على هذا النحو، فلن أذهب.»

«اذهبي، اذهبي.. ولكن لا تفتحي لها الموضوع.»

«حسنٌ.»

افترقا. عبرت البنت السمراء الطريق الطيني الطويل المؤدي إلى حي العمال. انعطفت من المنعطفات. عندما دخلت إلى صحن دار جميلة كانت الفتاة الشابة عند رأس سلم بيت موسى، وتبشر سكان البيت ويداها مغطوطتان بالدم: «قر الله أعينكم!»

سأل سكان الصحن جميعاً بلسان واحد: «ماذا جاءها؟»

«صبي، صبي!»

نزلت السلم راكضة. وبينما كانت متجهة نحو المضخة الصدئة في زاوية الصحن، قابلت البنت السمراء. قطبت حاجبيها فوراً.

سألتها البنت السمراء: «لماذا يداك مغطوطتان بالدم يا جميلة؟»

لم تجب جميلة.

قالت غوللو: «ولدتها جميلة. صارت داية!»

«هل هذا صحيح؟»

«لم تجرؤ أي منا يا أختي.»

«ألم تكن هناك داية؟»

«توجد، ولكنها ذهبت لتولد واحدة أخرى.»

تمتمت البنت السمراء منفعلة: «حباً لله، حباً لله!»

كانت جميلة قد غسلت الدم عن يديها. ودفعت إلى الخلف خصلة شعر سقطت على وجهها بحركة متوترة، ولكن الشعر يعاند.

مشت بسرعة نحو السلم لتذهب إلى المرأة التي ولدتها قبل قليل وحدها، وهي زوجة موسى صاحب البيت.

26

انفجر خبر محاولة المصنع جلب عمال من اسطنبول وإزمير كالقنبلة في الحي. هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ وإذا حدث، فهل يعمل عمال تلك المدن الكبرى الأكابر بأجرة قليلة كهذه؟

أما المطرودون من عملهم، فلم تكن حتى السكين تفتح أفواههم، وكانت وجوهم تقطر سماً. أما المعلمون ومساعدو المعلمين، والواشين وعلى رأسهم معلم الغزل خال صادق العين الزجاجية، وباختصار كل من طرد من العمل لأنه وقف ضد المعلم الإيطالي قد وقعوا في الحفرة، وخبا أملهم الصغير بالعودة إلى العمل.

حاول قادر آغا أن يدعم المعلمين ومساعدي المعلمين أحياناً، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا. كان الجميع متزوجين وأصحاب أولاد. لم يستطيعوا العيش بدعم الآغا الشبيه بالصدقة. وبعد هذا، سيفتقدون بضعة القروش، ويحل بؤس أسود مخيف.

ذات يوم سُمع بأن معلم النسيج وجد عملاً في أحد مصانع نازللي أو قيصري أو مكان آخر، وفرّ إلى هناك. وكانت هذه لكمة قوية لغائري الخدود والعيون.

قيل: «نعم» هكذا إذن؟ هكذا كان، ومع الأسف هكذا كان «هذا يعني أننا طردنا؟»

«ومثل الكلاب الشاردة!»

دبت الحيوية بالوجوه العابسة، وبدأت العيون الغائرة في محاجرها تقدح شرراً.

رعد عامل غليظ العظام، وضخم البنية مثل بركان: «نحن خدعنا يا شباب!»

جاءت صرخة جواب الإيمان النابعة من القلب، ومن أعماق القلب: «خدعنا!»

«وهل سندع هذا لهم دون حساب؟»

«من؟»

«الذين خدعونا!»

بدأت الأصوات الغاضبة تتصاعد بحقد من اليسار واليمين مجيبة:

«لن ندعهم!»

«علينا ألا ندعهم!»

«كيف ندعهم؟ هل متنا؟»

«متنا من ناحية الموت.»

سمع صوت بارد من أحد الأطراف: «ماذا تنوون أن تفعلوا؟»

كان هذا المعلم عزت. التفتت العيون كلها نحوه. كان هذا منتصباً بقوة وبصفرة وجهه الشديدة. وعندما لم يتلق جواباً عن سؤاله، أعاده: «ها، ماذا تنوون أن تفعلوا؟»

أجاب العامل الحاد الغليظ العظام: «سنهدم بيوت الذين سلبونا لقمة خبزنا من أيدينا فوق رؤوسهم!»

«من هؤلاء؟»

«معلم النسيج، ومساعدة، ومعلم الغزل، والواشون...»

ارتفع صوت شديد الجفاف: «العين الزجاجية، علينا ألا ننسى العين الزجاجية!» كانت عبارة العين الزجاجية القطرة التي طفح بها الكيل. إذا كان خاله قد سحب نفسه، وذهب، فهو موجود. ويسخر من بؤسهم بتأسيسه عمله، وفتحه مقهى.

قال الصوت الذي تحدث قبل قليل مرة أخرى: «لا يُدخلنا إلى مقهاه، ومن لا يشرب القهوة يطرده مثل الكلب. ما ذنبنا؟ كنا نعمل، وحالنا ماش. هو حرضنا. والآن...»

قال آخر: «كيف فتح المقهى؟ ممن وجد النقود؟»

«أعطاه إياها خاله!»

«خاله ها؟»

هب العامل الغليظ العظام من حيث يجلس على صندوق خشبي، وقال: «مختصر الكلام... لنهدم المقهى على رأسه، هل أنتم مستعدون؟» صوت جمع مريع يشبه رعد السماء مسح المعلم عزت، ومر. انطلق أناس عاطلون عن العمل منذ أيام طويلة، ومتوترون، وغائرة أعينهم في محاجرها، وجائعون كعاصفة غضب لا يمكن الحيلولة دونها وراء العامل الغليظ العظام.

قطعوا الشارع بسرعة. سيل أناس يكبر تدريجياً يتدفق بين البيوت الخشبية وبيوت البلوك المضجعة على جنب، والجالسة متربعة، ومقرفصة، وضاغطة على الأزقة المتعرجة والمتلوية. كان ثمة نخر يخيم على الجو. ليس بعد زمن طويل، بعد أسبوع فقط سيأتي عمال غرباء، وسيكملون نقص العمال في المصنع، ويزيدون. ماذا سيحدث بعد ذلك؟

بقي المعلم عزت في الخلف. كان يسأل: «نعم، ولكن ماذا سيصل لأيديهم إذا خربوا مقهى العين الزجاجية؟ هل هذا هو الحل؟ هل هذه طريقة لإنقاذ أنفسهم؟»

قال عامل راجح العقل: «معك حق. ليس هذا هو الحل، ولا يمكن أن يكون هذا خلاصاً، ولكن...»

عبر الزحام مثل مدحلة، وغاب.

توقف سيل الناس أمام مقهى صادق العين الزجاجية. رغم معرفتهم جيداً ما سيفعلونه، فقد ارتبكوا في تلك اللحظة. لم يكن يريد أحد أن يبدأ أولاً.

قفز صادق العين الزجاجية ذو العينين الخضراوين المذكّرتين بكرات الزجاج نحو الباب. شعر بأن شيئاً ما سيحدث. كان يتقلب من لون إلى لون، ويسحق تحت ضغط الزحام. قال: «تفضلوا. ماذا هناك؟ ماذا تريدون؟» ويدور لسانه.

انفصل العامل الغليظ العظام والحاد النظرات عن الزحام، وانتصب أمامه، وقال: «يجلبون عمالاً إلى المصنع، هل هذا صحيح؟»

كان صادق العين الزجاجية ينظر كأنه قد محق، ولا يستطيع الكلام.

«هل هذا صحيح ولاه؟»

«لا أعرف.»

«كيف لا تعرف؟»

«لا أعرف.»

«أين خالك؟»

رغم معرفته، قال: «لا أعرف.»

«لا تعرف ها؟ ولكنك عرفت كيف تحرضنا، وتتسبب بطردنا من عملنا؟»

كان صادق العين الزجاجية في وضع مريع. نظر إلى اليمين، ونظر إلى اليسار. ثم قفز خلفاً بقرار مفاجئ، ودخل إلى المقهى، وقفز من النافذة الخلفية كالمجانين. بدأ يهرب وهو يغوص في خنادق مليئة بالماء، ويخرج منها.

تلقى الزحام أمراً بالهجوم، وولج المقهى مثل مدحلة رهيبة. سحقوا الفناجين والكؤوس والنوافذ، والزجاج، والطاولات، والكراسي، والسماورات، وكل ما وجدوه.

حدث كل شيء في لحظة، وانسحبوا، وحتى إنهم ارتاحوا قبل مجيء شرطة مخفر الحي. الأولاد الحفاة، والحوامل غير العالمات بالهجمة المفاجئة، والمسنون المتجعدو الوجوه ينظرون بعيون محملقة مندهشين.

في تلك اللحظة ظهر حنطور بحصانين يدعى «كروسا» عند الزاوية. اقترب ببطء. علق بالزحام، ووقف. قفز نجاتي بداية إلى الأرض، وبعد ذلك جميلة. لم يكونا على علم بشيء. سألا المعلم عزت المقترب منهما عما حدث. وحكى لهما المعلم عزت ما جرى على نفس واحد.

انفعلت جميلة كثيراً، وقالت: «يا للأسف، أسفي على ما حصل!»

ركبوا بعد ذلك العربة جميعاً. عبرت العربة حي العمال الطيني القفر، وخرجت إلى الشارع الرئيس.

سأل المعلم عزت نجاتي: «هذا يعني أن جدتك قبلت في النهاية؟»

«قبلت.»

التفت إلى جميلة: «وأبوك؟ ما هو وضع والدك؟»

قطرات الدمع المتدحرجة من عيني جميلة تلاحق إحداها الأخرى.

«ها؟»

«لا أعرف.»

أغلق مالك المسن على نفسه الباب بالمزلاج، وهو يبكي أمام النافذة صامتاً. أما البحيرة التي أدار لها ظهره الحي فتتموج بشكل خفيف مذكرة ببحر كبير تحت صفرة شمس العصر الميتة.